د. رفعت السعيد

مقاربات مع ثلاثة رؤساء ومشير

عبد الناصر - السادات مبارك - طنطاوي

اسم الكتاب: مقاربات مع ثلاثة رؤساء ومشير
عبد الناصر - السادات- مبارك - طنطاوي
تأليف: رفعت السعيد
الطبعة الأولى: ٢٠١٧
الناشر: شركة الأمل للطباعة والنشر

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للناشر.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الأقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الناشر.

السعيد، رفعت
مقاربات مع ثلاثة رؤساء ومشير: عبد الناصر - السادات- مبارك - طنطاوي
تأليف: رفعت السعيد
القاهرة: شركة الأمل للطباعة والنشر، ٢٠١٧
١٩٦ صفحة ١٤ × ٢٠سم
تدمك: 978-977-5047-44-1
١- مصر- رؤساء الجمهورية
٢- مصر - تاريخ - العصر الحديث
٣- العنوان: ١٦٢/ ٩٢٣
رقم الإيداع: ٩٤٩٥ / ٢٠١٧
I.S.B.N 978-977-5047-44-1

مقاربات مع ثلاثة رؤساء ومشير
عبد الناصر - السادات - مبارك - طنطاوي

لماذا؟

عندما انغمست في كتابة "ما تبقي من ذكريات" لاحت في ذهني معلومات ألحت في أن تكتب. فسواء ما كتبته في الأجزاء الثلاثة من مجرد ذكريات أو ما أوردته في سياقات أخري كانت هناك معلومات تستحق أن يتعرف عليها التاريخ. لكنني مضيت قدما في كتابه ما تبقي ذكريات لاستكمل أو بالدقة لأكشف النقاب عما كان في فترة محددة، وقد كتبت وبدقة ما كان، متجنبا أن أتحدث عن سماعيات أو ثرثرات أو مشاحنات، فقط كتبت ما رأيت وما عاينت وعانيت بنفسي، وقد أتت الكتابة صارخة بما احتوته من اسماء ومواقفها فكانت في اعتقادي وثيقة مكملة لحقائق ما كان في هذه المرحلة.. وخاصة ما كان في جبهة الإنقاذ من ممارسات وخلافات واختلافات. وما أن أنتهيت مما "تبقي من ذكريات" حتي ظلت تناوشني بعض من وقائع كانت، ولكن تجاوزتها الكتابة في مختلف مراحلها وبدأت إعاني كعادتي عندما تلح علي بعض من معلومات أخشي أن تغيب

مع غيابي فأكون مقصرا في أداء واجب وهبت أغلب وقتي له. سواء عند كتابه تاريخ الحركة الشيوعية المصرية (خمسة مجلدات) أو كتابة "مجرد ذكريات" (ثلاثة أجزاء) أو في تسجيل ما كان عن السادات ومنه وعليه. وكذلك تعرضت لعلاقات مع كل من مبارك والمشير. ومع توالي الايام يزداد الإلحاح إلحاحا ويكاد أن يتحول إلي هاجس يومي، كضربات قلب متسارعة لا تنم عن حيوية وإنما توحي بقلق موجع. وقررت أن آتي إلي الورق لأكتب.. لكن ما أن أتيت حتي وجدت الأمر صعبا.

فأنا لا أريد أن يتصور البعض. وكثيرا ما يوجد بعض متربص- لسبب أو لآخر-، أنني أحاول أن ارتدي ثياب الإيهام بأنني كنت صديقا للرؤساء وهذا لم يكن ولو بأقل قدر، كانت هناك مقاربات قليلة جدا مع عبد الناصر ومشاكسات ممزوجة بمداخلات مع السادات ثم علاقات أكثر مع مبارك وطنطاوي.

وثمة ثغرتان زمنيتان سأتجاوزهما.. فترة مرسي فقد كتبت عنها في "رسائل إلي د. مرسي".

وهو كتاب لم أزل استمتع بالتجول في صفحاته حتي الآن، وكذلك في كتابات أخري، كما أنني لم أشأ أن يتصور البعض أنني افترس خصوما هم في نهاية الأمر في قبضه السجون وتتوالي عليهم الأحكام والمحاكمات وبصراحة لا يسمح لي ضميري أن اتخذ من ذلك فرصة لتصفية حسابات أصبحت ثقيلة الوطأة علي أشخاص لا يمتلكون القدرة علي دفاع أو إيضاح أو رد.

أما الثغرة الثانية فهي مرحلة تولي السيد المستشار عدلي منصور مرحلة الرئاسة الأنتقالية فهي علي قصرها كانت مشحونة بمحاولات التقرب والادعاء والتوضؤ من خبث التعامل غير المقبول مع سلطة الإخوان وكنت اشفق علي الرجل من وطأة التزاحم حوله وهو القاضي الذي اعتاد التباعد من جانبه والتباعد من جانب الآخرين. لكنني مع قصر هذه الفترة وتباعدي المتعمد أحمل له في قلبي محبة مفعمة بالامتنان ليس فقط بسبب موقفه الشجاع الذي تقبل به أداء مسئولية جسيمة وشديدة الخطر، وتطلبت مجازفة بتصادمات لم يعتد القاضي عليها، وإنما أيضا هو امتنان عميق لا يذبل أبدا إذ أنه ما أن سمع بأن زملاء عبدالناصر منحوا بعضهم البعض "قلادة النيل" وتجاهلوا الأستاذ خالد محيي الدين عندما كان منفيا بالخارج، وعندما عاد. وحتي عبد الناصر الذي كان السبب في ذلك لم يشأ أن يصحح الخطأ. ووصل الأمر أنه وجه له دعوة شخصية لحضور فرح ابنه خالد عبد الناصر.. وقال "أظن لازم تيجي ده أنا سميته علي اسمك"، فرد الأستاذ خالد مترددا أصل حضوري سوف يحرجني لأنني حتي لن أستطيع الاقترب من زملاء مجلس الثورة بسبب البروتوكول، فقال عبد الناصر "يا سيدي حنلغي البروتوكول في اليوم ده علشان تقدر تقعد مع الزملاء".. وأنا كنت حاضرا أثناء هذه المكالمة وعندما أنتهت المكالمة قال الأستاذ خالد "يغير البروتوكول وميغيرش موقفه" وأعود بعد هذه العبارة الاعتراضية الطويلة أعود إلي المستشار الجليل عدلي منصور الذي ما أن سمع أن خالد محيي الدين لم يحصل علي حقه في قلادة النيل حتي قرر منحها له. فشكرا وامتنانا.

. . وتبقي بعد ذلك تحيات هامشية وابتسامات متبادلة كلما لمح أحدنا الآخر وفي كل مرة يسألني هل أصدرت كتابا جديدا؟ وأجيب بنعم واعد بإرساله له . . وأفعل مستشعرا سعادة غامرة .

والمشير طنطاوي شخصية ودودة هادئة رغم أن الضباط كانوا يقولون أنه صارم أو وفق التعبيرات العسكرية "عسكريته ناشفة" تواجدت معه في الاجتماعات التي عقدها مع رؤساء الأحزاب الممثلة في البرلمان التي توالت لتقارب ٣٢ اجتماعا واستمر كل منها أكثر من سبع أو ثماني ساعات . وتلاحظ عيناي - ما قد يسهو عنه البعض- ذلك الاحترام له من جانب ممثلي المجلس العسكري شديد الانضباط الممزوج بمحبة وافرة (وأذكر أن الأستاذ خالد محيي الدين قال لي أنهم في اجتماعات ومقابلات مجلس قيادة الثورة، ثم خلال أيام بداية حكمهم كان الجميع ينادي الجميع بأسمائهم المجردة) وفي حالات من لقاءات السيد المشير معنا وعندما يتوافر فيها اعتدال المزاج نكتشف سياقات أدبية وحافظه للشعر لم أكن أتصورها . ولكنه ومع المودة ظل حريصا جدا علي أن يحافظ علي مسافة لا تسمح بأكثر من مودة محترمة ومتباعدة . ومع ذلك فإن هناك ما يمكن أن يروي عن ملاحظات وتصرفات وأقوال .

***

ولست أريد أن أخفي صعوبة المرتقي في هذه الكتابة، فأنا احتاج إلي حذر شديد وأنا اتقارب مع ما كان مع كل منهم (ومعه ما سأحاول استعادته خلال محاولات التماس مع كل رئيس) .

وسأكتب بحذر فقد تفلت كلمة أو عبارة يشتم منها القراء أو حتي قارئ واحد أنني اتظاهر بأننا أنا وهذا الرئيس أو ذاك كنا أصدقاء. أو أنني أتحدث عن علاقات منتهزا فرصة أن بعض أطرافها قد رحلوا فأحاول أن أدس فيها بعضا مما لم يكن موجوداً.

وأعود لأكرر ودون أي تردد هم كانوا رؤساء وعلاقاتهم بالرعية حتي وأن تبدت ببعض من التباسط إلا أنها في نهاية الأمر علاقة رئيس برعاياه. ومنذ البدايات الأولي أدركت أن علي التعامل بحذر شديد وأن اقترب من أي منهم سائرا علي حبل مشدود علي ارتفاع من يسقط منه.. يسقط نهائيا. وأبي قد علمني من خلال متابعتي لتصرفاته أن أحافظ علي كرامتي وألا أفرط بأي قدر منها، بأي مقابل. واحرص علي إلا تتقارب أكثر مما يجب، وأن تضع لنفسك شعارا لقنه لي أبي أيضا، ولم انساه طوال حياتي عندما أريته صورتي وأنا أصافح عبد الناصر خلال زيارته لمبني الأهرام الجديد وأنهاها باجتماع مع محرري الطليعة رأي الصورة وابتسم قائلا "السلطان من ابتعد عن السلطان".. ولم اتجاهل طوال علاقاتي مع الآخرين هذه العبارة، ولكي احقق ذلك تسلحت بسلاح آخر هو ألا تطلب شيئا ولا تريد شيئا من خلال هذه العلاقات بل تفعل ما تراه مفيدا لوطنك وشعبك وحزبك زاهدا بحق ودون تظاهر زائف في أي منصب أو موقع أو مال..

***

ولذلك تأتي هذه الكتابة صعبة وأحيانا مستعصية وقد لا يتصور القارئ أنني مضيت في هذه الكتابة شوطا طويلا دون أن استقر علي عنوان للكتاب الذي أنا بصدده. بدأت باختيارات كل منها خشيت

من أن يفهم خطأ.. وتعاملت مع عبارات عديدة كتبتها ثم خشيت أن تفهم خطأ.. كأمثلة:

* علاقتي مع . وخشيت أن يتصور البعض أنني اضخم من ذاتي..

* حكاياتي مع .. وهذه أيضا خشيت منها.. والحكايات تعني حالات من التباسط المتبادلة وهو ما لم يكن موجوداً.

* أما "أنا و...." فقد توحي بأننا تعاملنا كأصدقاء.

وأمثلة أخري عديدة لم احتملها ولا احتملتها طبيعة هذه العلاقات.

وعلي أية حال وبرغم ادراكي لصعوبة المرتقي.. فقد بدأت، وما أن بدأت مترددا ومتحيرا كيف اكتب؟ وماذا اكتب؟ دون أية مسحة من التطاول أو التفاخر أو التباهي أو الادعاء المغرور أو حتي الادعاء المنطفئ.

فقد اكتفيت بأن اكتب متحيرا تماما كما تعاملت متحيرا مع كل رئيس منهم مقدما ما عندي بإخلاص محافظا علي كبرياء لم أفقده ابدا، ومتعففا عن السعي وراء كسب أي كسب لشخصي.

فهل نجحت في ذلك؟ أتمني.

أ - في خضم الموج الناصري

وأنا كما وعدت القارئ وتوعدت نفسي لن أحاول اجتياز احتكاكي الشخصي إلي الكتابة عن الناصرية وما فعلنا معها وما فعلت بنا. فقط ما رأيت أنا وفعلت وقلت وسمعت. لكن التجربة الأولي لم تكن ذات انطباع ايجابي. ففي بدايات العام الدراسي الثاني في جامعة ابراهيم باشا الكبير (عين شمس فيما بعد) وكنت تقريبا منهمكا في غمرة العمل السري باستثناء زيارات متعجلة للجامعة ارتب فيها بعض الأمور التنظيمية، وفي صباح مبكر أتي رفيق يحمل رسالة شفوية تقول.. الإخوان يستجلبون إلي ساحة حقوق جامعة فؤاد (القاهرة حاليا) حشودا طلابية ضخمة من مختلف المعاهد والمدارس استعدادا لزيارة سيقوم بها جمال عبد الناصر إلي كلية الحقوق وقد تعهد له الإخوان باستقبال حافل. دارت ماكينتنا محاولة

أن تحشد ما هو ممكن من طلاب لنجده رفاقنا هناك، واستطعنا تجميع عدد لا بأس به من الوفديين ومصر الفتاة ورفاقنا في الحقوق والهندسة والطب واستغرق ذلك وقتا وفي اتوبيسات النقل العام تحركنا إلي ساحة حقوق فؤاد، لنجد حشودا إخوانية كبيرة فعلا وعديد من رفاقنا، وقد تعرضوا لعدوان غاشم زادته وحشية إحساس الإخوان بمساندة عبد الناصر لهم.. وعبد الناصر وخالد محيي الدين وآخرون من اعضاء مجلس قيادة الثورة.. واقفون علي منصة وحسن دوح القائد الطلابي للاخوان ممسك بميكروفون ويصرخ وسط هتافات إخوانية صاخبة "يا رجل الثورة.. اعطنا حرية في العمل وساعتها سنقول للشيوعية الملحدة" اخرجي من بلادنا.. ونقول لهم "يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ليحطمنكم سليمان وجنوده" .. كنا قد وقفنا معا وانضم إلينا بعض من طلاب جامعة فؤاد.. ولم ينتبه إلينا أحد، فقد غادر الضباط المنصة ودخلوا مكتب الدكتور مورو رئيس الجامعة. وانصرف الإخوان بعد أن ادوا مهمتهم الثلاثية وهي ضرب الشيوعيين وتملق عبد الناصر أمام زملائه الضباط واظهار قوتهم لقادة الثورة وبعد فترة كنا وحدنا تقريبا والضباط امضوا وقتا مع د.مورو يكفي كي ننظم انفسنا في هدوء وصمت، وفيما كان عبد الناصر والضباط يخرجون كنا نسد الطريق أمام سياراتهم.. هاتفين "الشعب يريد الديمقراطية" "الشعب يريد الدستور" "افرجوا عن المعتقلين" دهش الضباط وتوقف عبد الناصر ليتأملنا ولعله تساءل في نفسه من أين أتوا؟ وكيف أتوا بعد كل ما كان؟ استمرت هتافاتنا

حوالي عشر دقائق وعبد الناصر أشار لحرسه بعدم التحرك وهو واقف صامت والضباط الآخرين ما بين مبتسم شماتة في جمال وفي الإخوان وبين من يظهر الغضب وبإشارة واحدة صمت الهتاف وتفرق الجمع.. وانطلق الضباط بسياراتهم.

إضافة لاحقة: وبعد سنوات طويلة ما بين سجن واعتقال وبعد الخروج الأخير من السجن.. عملت في مؤسسة أخبار اليوم بواسطة من محمود المناسترلي زوج أخت ليلي (التي أصبحت آنذاك خطيبتي) ودعم من علي الشلقاني. وبعد فترة من العمل معا تآلفنا أنا وخالد محيي الدين (الذي كان رئيسا لمجلس إدارة المؤسسة) وفي جلسة دردشة ونحن في طريقنا معا للإسكندرية بالسيارة حكيت له هذه الواقعة فانفجر ضاحكا وسأل.. أنت كنت فيهم؟ فقلت نعم. وحكي خالد محي الدين أن عبد الناصر استدرجهم إلي الجامعة لكي يريهم نفوذه علي الإخوان ولكي يحرج موقف الأستاذ خالد الذي كان يحشد ضباط سلاح الفرسان والضباط اليساريين مطالبين هم أيضا بالديمقراطية. لكن ظهورنا وهتافاتنا والتي لم تكن مخططة أصلا افسد زهو عبد الناصر لكنه قال لخالد "برضه الولاد بتوعكم جدعان". ثم همس في أذني اوعي تحكي الحكاية دي لحد.. فعبد الناصر لا ينسي مثل هذه الاشياء..

ولأنني لا أسجل تاريخ مرحلة ما وإنما أقدم وقائع تشابكت أحرفها مع قيادة يوليو فإنني استأذن في أن اقفز إلي واقعة أخري.. فعندما وصلت إلي حقوق ابراهيم باشا كان عدد رفاقنا قليلا جدا

فقد كانت السنة الثالثة لإنشاء الكلية، وكنا آنذاك في سبتمبر والدراسة في أيامها الاولي.. وبدأت تحالفات ثلاثية (نحن والوفد ومصر الفتاة). وعقدت مؤتمرات عدة في أكثر من مدرج وضمت حشودا ضخمة ودعيت للتحدث ترددت فدفعوني إلي المنصة وخطبت مطالبا بالدستور والديمقراطية وصفق الحضور وأنتشيت وتحولت إلي خطيب شديد القسوة في كل مؤتمر طلابي. وأنتشرت مجلات الحائط مجلاتنا ومجلات غيرنا.. وتحولت الجامعة إلي ساحة سياسية تقودها "الجبهة الوطنية الديمقراطية لطلاب حقوق جامعة إبراهيم". وضاق الضباط ذرعا بالحركات الطلابية العارمة، وبدأت حملة اعتقالات واسعة حصدت مئات الطلاب في معتقل مدرسة عسكرية هي مدرسة الصناعات الميكانيكية بالعباسية، ومع بدأ حملة الاعتقالات.. وتردد طلاب كثيرون واختفاء المؤتمرات الطلابية في الكلية وتباعد صدور مجلات الحائط توحش الإخوان وبدأوا في الاعتداء الوحشي علي زملائنا واكتشفنا أنهم يخبئون في أحد دورات المياه عصي وشوم وجنازير وأغلقوا بابها من الداخل بحيث لا يمكن فتحها إلا بعد القفز من الحمام المجاور، وفي فترة هدوء مسائية نقلنا هذه الأشياء إلي دورة مياه أخري وأغلقناها بنفس الطريقة ثم بدأنا في التعرض لهم ولم يجدوا أسلحتهم ووجدوها معنا.. وانطلقوا هاربين..وفي اليوم التالي أتوا لينتقموا فوجدوا أن عددا من أعضاء الجبهة قد ضربوا طالبا معنا اكتشفناه من فرط احترام الطلاب الإخوان له.

وكان هو هادئا ومتباعدا.. والفتي الهادئ الوديع هو ابن المرشد حسن الهضيبي. وأتي إلي أحد قادة الإخوان ليطلب عدم المساس بابن المرشد واتفقنا لا ضرب من فريق لفريق ونكتفي بالحوار الهادئ. لكن معتقل الصناعات الميكانيكية المجاور كان حافزا ومحرضا لنا كي نتحرك ضد الاعتقالات وقررنا في الجبهة أن نصدر منشورات تطالب بالافراج عن المعتقلين وتعهدت أنا أن نقوم بطباعتها وتوزيعها ونجحنا فيما أذكر مرتين. وكان في المعتقل الطلابي سعد زغلول فؤاد وقاد عمليات شغب محدودة، ثم كان أن ادعي الشروع في الأنتحار وبلل شفتيه بصبغة يود وادعي أنه شرب الزجاجة بأكملها فأسرعوا به إلي المستشفي حيث بقي عدة أيام.. وبعدها كررها غيره حتي أرسلت المستشفي خطابا إلي المعتقل يبلغهم أنه ليس هناك حالات أنتحار وإنما طلاب يبللون شفاههم فقط بصبغة يود. وتقرر ايقاف إرسال أحد إلي المستشفي .. لكن طالبا من غير المشاكسين اسمه عصام سري فعلها ولم يكن يعرف الحيلة لكنه شاهد من ينتحرون يذهبون ويعودون أصحاء بعد أيام.. وشرب زجاجة صبغة يود كاملة وصرخ صراخا حقيقيا ولم يصدقه أحد حتي توفي. وتحمست وكتبت منشورا باسم الجبهة وآخر باسم "رابطة الطلبة الشيوعيين - حدتو- جامعة إبراهيم- فقد كنت مسئولا لطلاب جامعة ابراهيم.. وعنوان المنشورين "يسقط نجيب قاتل عصام". ووزع المنشوران في مبني هندسة وحقوق بعبده باشا ومبني طب بالعباسية.

كنت شابا متحمسا ، وكنا في الرابطة بعيدين عن الصراعات الحزبية التي كانت محتدمة بين معسكرين في "قيادة منظمة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني -حدتو" أحدهما يقوده السكرتير العام الرفيق بدر (سيد سليمان رفاعي) والرفيق مسلم (النقابي سيد خليل ترك) والآخر يقوده الرفاق خليل (كمال عبد الحليم) حميدو (محمد شطا) ناشد (زكي مراد) والصراع ملتهب حول الموقف عن حركة الجيش خاصة بعد اعدام خميس والبقري قائدي اضراب عمال كفر الدوار واصدار قرارات حل الأحزاب وشن حملات اعتقال ضارية ضد الشيوعيين وحدتو بالذات.

.. أنا بحماس شاب يفتقد الحساسية ازاء كلمة "يسقط" كتبتها واصدرت المنشورين ووزعا.. وزاد الانقسام حدة.. ولم يصدق احد انني فعلتها دون ايعاز من احد، وأن مسئول قسم طلابي قد تجاسر فرفع شعار الاسقاط دون اذن من احد.. واعتقد الحكام أن قيادة حدتو قد أوعزت لطالب صغير السن أن يفعلها كجس نبض للتعرف علي رد فعل الضباط الحاكمين، بينما صمم المعسكر المناوئ للسكرتير العام علي أنه حرضني أن افعل.. ولم يصدقني أحد. المهم تداول الجميع في حدتو وفي جميع المستويات الواقعة، فمسئول قسم رابطة جامعة ابراهيم رفع شعار الاسقاط. مين مسئول القسم؟ الرفيق شكري ثم تزداد النميمة ليقال اسمي الحقيقي همسا.. وبعد فترة روي إلي القائمقام يوسف صديق (سأروي حكاية مقابلته فيما بعد) أن عبد الناصر فيما كان يعاتبه ويحاول

مصالحته قال له "أن قيادةحدتو سلطت ولد اسمه عندنا كي يرفع شعار اسقاط النظام كمحاولة لجس نبضنا".

***

شغب متواصل

عدت من المنصورة مع بدء العام الدراسي الثاني لأجد أن حملة القبض في اغسطس قد اكتسحت تقريبا كل رفاق القاهرة وتوقف نشاط المنطقة تماما. كنا نعرف أن عدداً من القادة طلقاء.. هاربون ومحاصرون تحت الضغط الأمني الذي حال بيننا وبينهم. وباختصار وجدت نفسي ومعي حوالي خمسين عضوا من رابطة الطلبة في قسم جامعة ابراهيم وتقريبا كلهم من كليات حقوق -هندسة- طب. وكنت المسئول أيضا عن مجموعة من الطلبة السودانيين يقيمون في بيت السودان بالمنيل.

وما أشد قسوة الأمر علي فتي صغير السن معزول تماما عن القيادة والتوجيهات القيادية، وحملات القبض ضارية ومتواصلة.. ولا يعرف ماذا يفعل.

وكلما اتسعت الحلقة كلما ازدادت الأمور صعوبة في نظري. وألف مرة أسأل نفسي ماذا أفعل؟ وماذا افعل بهؤلاء الرفاق.. وأتي سامي برهام رفيقنا في كلية الحقوق ومعه رواية سوفيتية مترجمة التقطها من سور الأزبكية عنوانها "الاوبكوم السري في غمرة العمل" (والاوبكوم تعني لجنة المنطقة). وتحكي الرواية قصة

مجموعة من الرفاق حاصرهم الغزو النازي المفاجئ لاوكرانيا فانطلقوا إلي الغابة ليبدأوا نضالا ضد النازي دون أن يكون لديهم أي سلاح ولا أي علاقة بأية قيادة ولا حتي بالوطن الأم وألهمهم قائدهم شعارا جميلا "النضال ضد العدو لا يحتاج إلي أوامر أو توجيهات من أحد" . قضيت الليل سهرانا اقرأ بأنتباه كيف تحولت هذه المجموعة إلي جموع تحارب النازي وتلهم وطنا بأكمله.. وفي الصباح قررت أن افعل شيئا دون أنتظار لأوامر من أحد ، توقفت تماما عن الذهاب للكلية وسلمت قيادة العمل الحزبي فيها إلي مجموعة ثلاثية سامي برهام- نجيب سرور- فؤاد قنديل، وبدأت العمل مع الآخرين.

كنا فيما أذكر عشرون طالبا تركنا الدراسة وتفرغنا لبناء "الاوبكوم السري" مع الجميع بعد أن قسمتهم إلي اربعة مجموعات وكان السؤال كيف نبدأ؟ وماذا سنفعل؟ وتراصت مجموعة من المقترحات كلها تبدت وكأنها ساذجة أو حتي مجنونة وقررت أن نبدأ بها جميعا كانت جدران القاهرة مغطاه ببوسترات عليها صور نجيب وأخري عليها نجيب وعبد الناصر وثالثة مكتوب عليها "الاتحاد والنظام والعمل" مسدسات لرش المياه تمتلئ حبرا اسود وتشوه الجميع.. واقتراح بسيط آخر شرائط من الورق اللاصق مجموعة تقضي ساعات لتكتب عليها " يسقط الديكتاتورية العسكرية - حدتو" وفي الفجر تنطلق المجموعات كل خمسة في عربة مترو أو اتوبيس وفي غفلة من السائق والكمساري النائم في

اغلب الاحيان تلصق الشرائط علي زجاج العربة وتنزل المجموعة إلي عربة أخري، وذات يوم جاء نهاد أنور (حقوق) باقتراح من قريب له كان عضوا معنا (كلية العلوم) هو : أن نغلي زيت برافين في حمام مائي ونذيب فيه بودرة بوية حمراء ومع تقليبيها تتحول إلي ما يشبه العجينة وتفرد علي قطعة مشمع حتي تبرد ثم تقطع إلي اصابع للتحول بعدها إلي ما يشبه الأقلام لكنها ليست كأي اقلام فعندما تكتب علي اي جدار تتألق لامعة وإذا حاول أحد غسلها بالماء تزداد تألقا.. وانطلقت المجموعات ثلاثة يراقبون الطريق من كل الاتجاهات واثنان يكتبان- الشعار الاثير لدينا آنذاك "تسقط الديكتاتورية - حدتو" قسمنا القاهرة اقساما تنطلق المجموعات لتغرق شوارع وحارات القسم كتابة علي الجدران.. ثم في اليوم التالي إلي مكان إخر. وذات يوم ذهبنا إلي حي الدقي وأغرتنا العمارة الضخمة بجوار فرن الجهاد فملأنا جدرانها.. ولم نكن نعرف أن القادة الهاربين (شطا- زكي مراد- محمد خليل قاسم) يسكنون هناك في البدروم.. استيقظوا علي ضجيج البوابين وهم يدهشون من الكتابة التي تزداد تألقا كلما غسلوها (بعد زمن حكي لي زكي مراد جن جنوننا فرحا فقد علمنا أن التنظيم ينشط لكننا غرقنا في قلق شديد وكان يجب أن نرحل). ولأن الجنون يستدرج الجنون فقد اقترح طالب (زراعة) أن تعد رشاشات كبيرة مليئة بماء مذاب فيه سماد من فضلات الحمام. وببساطة ترش بكتابة كلمة واحدة "حدتو" علي مسطح النجيل الذي كان يغطي مدخل ميدان العباسية باتجاه قصر

الزعفران.. وكان زملاؤنا يلبسون جلاليب وهم يرشون هذه المساحة بكلمة حرية أو كلمة حدتو.. وبعدها بأيام أمر الأمن بقص هذه الكلمة التي تبدت اكثر نموا من المسطح لكنها كلما قصت زدادت نموا.. وتقرر الغاء هذا المسطح اصلا.. وتواصل الجنون حتي لفت الأنظار. وذات يوم وفيما نتخيل أننا "أوبكوم سري" فعلي وأن العدو ازداد قلقا. اتصل طالب بكلية الطب بمسئوله ليبلغه أن قريبه وهو ضابط يعمل في مقر قيادة الجيش حيث يجتمع مجلس الثورة وأنه مسئول عن إعداد الاجتماعات وتأمينها، وأنه يسمع الكثير فهو تقريبا حاضر واقفا في كل الاجتماعات وأنه فقد الاتصال ولديه أخبار هامة يريد ايصالها للقيادة. ولأنني أنا المسكين الحائر والمسمي "القيادة" قابلته أتي به رفيق وتركه ومضي.. الضابط وكان يرتدي زيا مدنيا أنيقا نظر إلي في دهشة لكنه مضي معي وبدأ يحكي وكنت اختار الشوارع الضيقة والمظلمة وينتهز هو أية بقعة ضوء ليتلمس شكلي أنا الذي أصغره بسنوات عديدة.. كان يحكي دون أن أقاطعه قال أخبارا مهمة حكي كيف دخل عبد الناصر في أوائل سبتمبر (أي قبل عدة أسابيع) وقال في زهو باركوا لزكريا (زكريا محيي الدين) فقد وجه ضربة مميته لتنظيم حدتو. وتعالت التهاني.. ولكن بغدادي سأل امال مين بيكتب شعارات في الشوارع فرد عبد الناصر دول شوية عيال وحنجيبهم فورا. وكانت أهم الأخبار متعلقة بالمفاوضات مع الإنجليز وأنها توقفت عند الزي الذي سترتديه القوات الإنجليزية التي ستبقي في قاعدة القنال. الإنجليز

يصممون أن يرتدوا زيا عسكريا والمصريون يقولون بهذا الزي سيبدون كقوات احتلال.. وفيما نمر في أحد الشوارع كانت كتاباتنا علي الجدران تتلألأ فسأل مين بيكتب ده؟ قلت احنا، ومن عمل حكاية النجيل عند قصر الزعفران؟ فقلت احنا..ومين رش البوسترات بالحبرالأسود؟ احنا.. احنا.. احنا ويزداد الضابط انبهارا وفجأة سألته ما رأيك في أن نوجه صفعة شديدة لزكريا؟ وسأل ازاي.

فقلت أرسل لك مطبوعات سرية لحدتو وتضعها بالملفات التي توجد امام الجالسين؟ سكت الضابط ولم يجب. وفيما اقتربت لحظة الافتراق قال ابعت المطبوعات وانا حأتصرف. وبسرعة طبعنا عددا من نشرة "الكفاح" وكانت تكتب علي الاستنسل وتطبع علي اطار من الخشب مشدود عليه قطعة من الحرير.. وكان العنوان "دبوره علي الكتف تعرقل المفاوضات مع العدو". وباختصار وضعت النشرات في الملفات، واستدرج رفيقنا أحد الضباط التابعين لزكريا في جهاز المخابرات لكي يقف بالغرفة ليحرس الملفات المتخمة بمنشورات ونشرات.. ووقف هو بعيدا. وما أن بدأ الاجتماع حتي صاح الجميع ايه ده؟ وصاح عبد الناصر ملتفتا إلي ضابط المخابرات هي حصلت؟ وقال رفيقنا في لقائه التالي معي أن اكثر الشامتين كان بغدادي. أما زميلنا الماكر فقد تقدم باقتراح بتغيير مكان الاجتماعات لتكون داخل مبني المخابرات.. وتمت الموافقة وبالتالي أعيد هو إلي سلاح الفرسان.. ولم يصب بسوء. وبعدها دارت

ماكينة العنف الناصري واتسعت حملات القبض لتشمل كل من يشتبه فيه، وقبض في كلية الحقوق علي اغلب زملائنا وعلي قيادة الجبهة من وفديين ومصر الفتاة، وتولت المخابرات العامة وبشكل مباشر مسئولية اسكات صوت حدتو وآن لنا بسبب مشاغبات غير متقنه أن ندفع ثمنا باهظا، ليس فقط بسبب قبضة المخابرات الحاسمة وإنما أيضا بسبب المنافسة بينها وبين البوليس السياسي وكذلك بسبب ما تسببنا فيه من غيظ عبد الناصر.. وتعلمت عبر سنوات تالية أن أتلقن أن من فنون العمل السياسي عموما والسري علي وجه الخصوص ألا تفعل ما قد يستثير الخصم كي يفعل ما لا تحتمل.

***

ويوسف صديق أيضا

وفيما يتصاعد الارتباك المصحوب بنشاط محموم لا أجد له نهاية ولا يعرف لا كيف يتصاعد ولا كيف يتحسب من أتونه. اتصل احد اعضاء خلايا التنظيم في كلية الحقوق اسمه محمد حلاوة وكان علي علاقة قرابة بعيدة مع يوسف صديق وقال ذات العبارة السابقة "احد كبار الضباط يريد أن يقابل الرفيق المسئول". قابلت حلاوة وأسقط في يدي فالذي يطلب المقابلة يوسف صديق وكنا نسمع اسمه فنشعر بالمهابة ولا يصلح أن اتجول معه في شوارع الوايلي المظلمة ولا أن استضيفه حيث اختبئ واخيرا رتبت أن ألتقي به في فيلا ارستقراطية عتيقة لعائلة احد رفاقنا الطلبه.. عباس محمد

رفعت، والشارع اسمه شارع محمد بك رفعت وبهذا تتضح طبيعة الأسرة. عباس وافق ببساطة قلت سألتقي ضيفا مهما في بيتك واجاب اتفضل. وفي غرفة الصالون ذات الأثاث التقليدي العتيق تبدي يوسف صديق شخصا اسطوريا، وشعيرات بيضاء تكسو فوديه تزيده مهابه، لعله شعر بأنني ارتجف وانا اصافحه فمنحني نظرة حانية وابتسامة صادقة فتشجعت. وبدأت أنا بالكلام فشكوت من وضعي. أنا وجدت نفسي في هذا الوضع ولا استطيع أن أجد أحدا في القيادة يمنحني التعليمات. وقلت أنا اتصرف ولا اعرف أن كانت تصرفاتي صحيحة أم خاطئة. قال وهو يتمشي مين رتب وضع منشورات حدتو في ملفات ضباط القيادة؟ قلت أنا. ومين رتب رش البوسترات بالحبر الاسود؟ أنا ومين رش النجيل في ميدان العباسية؟ أنا، توقف وارتجفت متوقعا لوما وتأنيبا فإذا به يمد يديه فوقفت لاجد نفسي في احضانه وهو يقول برافو. وأحسست بالرغبة في أن ابكي في احضانه لكنه بدأ يعاملني كمسئول حقيقي.. وبدأ يحكي عن وضعه بعد ابعاده من مجلس القيادة، وقال: أنه وبعد فترة من التباعد بينه وبين عبد الناصر "استدعاني جمال منذ يومين" وبدأ التعاتب" صديق يشكو من عزلته وعبد الناصر يشكو من "عليه" زوجة يوسف صديق (وكانت عضوة نشطه في حدتو) ثم بدأ عبدالناصر بالشكوي من خلافات مع بعض اعضاء القيادة ومن الضغوط الخارجية وطموحاته هو في أن يرسم لنفسه طريقا مستقلا في السياسة الخارجية يمنحه قدرة علي حماية

وضعه الداخلي، وذكر له بعضا من معلومات عن سياسة نهرو الخارجية التي تحاول التوازن بين امريكا والاتحاد السوفيتي، وكذلك محاولات تيتو في يوغسلافيا لتحقيق نوع ما من الاستقلال عن الاتحاد السوفيتي.. واحلامه في تكوين محور ثلاثي (اسمي فيما بعد الحياد الايجابي) وسأله ما رأيك في مشروع كهذا؟ وهل تقبل أن تساعدني لتحقيقه؟ وهل تتصور أن "الرفاق" سيؤيدون موقفا كهذا؟" ويمضي القائمقام "ما أن ابديت نوعا من الرغبة في التفكير في الأمر حتي بادرني قائلا "تسافر سفيرا في الهند وتبدأ في السعي معي لتحقيق هذه الخطوة" ولست اعرف انا مدي جدية هذا العرض ولا جدية "تعميمه علي الرفاق" كما وصفهم عبد الناصر. أم كان الأمر مجرد اغراء لفارس يصعب اغراؤه بمنصب سفير كي يسافر بعيدا عن ضباطه الذين يواصلون الاتصال به؟.. ازداد ارتباكي وقلت بصراحة هذا الأمر أكبر كثيرا من أن افتي فيه، أنه اصعب من الكتابة علي الحوائط أو رش الصور بالحبر الاسود. أما هذا فأمر صعب جدا. ثم اضفت هناك اقتراح هو ليس حلا ولكنه مهرب مؤقت. إيه هو؟ سألني قلت" يريد أن يعرف رأي الرفاق والرفاق القياديين عنده في السجن، فليبحث معهم الأمر، مرة أخري قال يوسف صديق "برافو" ثم كانت المفاجأة فيما كنا نوشك علي أنهاء المقابلة فتح الباب ودخل شاب فارع الطول مخاطبا عباس "ايه يا عباس مش عايزين شاي او قهوة؟ (وعرفت فيما بعد أنه زوج شقيقة عباس وأنها تشككت في امر الضيف الاكبر سنا بكثير من أن

يكون صديقا لطالب، وطلبت منه أن يدخل ليستطلع الأمر) وفيما يلتفت عباس إلي الضيف ليسأله التفت زوج شقيقته ليتعرف علي القائمقام.. ويوجه له التحية العسكرية باحترام شديد "تمام يا افندم تأمر تشرب ايه" وابتسم القائمقام" قائلا "شكرا ياحضرة الضابط أنا ماشي" وفيما نغادر قال القائمقام الضابط عرفني ولازم حيبلغ . قلت حيحصل ايه فقال انا ما يقدروش يعملوا معايا حاجة، لكن أنت حيقطعوا رقبتك. فإستعد. وبالفعل انقلبت الدنيا بحثا عني وقبض علي في 25ديسمبر وإلي السجن ثم تمت المحاكمة ثم خمس سنوات اشغال شاقة. اما يوسف صديق فقدم ضيقوا عليه الخناق وقبض علي زوجته علية توفيق لفترة من الوقت.

وفي السجن توقفت كل التلامسات أو المقاربات إلا من ثلاث حالات .

***

وفي السجن، وتحديدا في سجن جناح حيث الحياة في خيام محاطه بسلك شائك .. وقعت مقاربتان اعتقد أنهما هامتان في فهمي لعبد الناصر. "كان المعسكر ذو الاسلاك الشائكة منقسم إلي قسمين الإخوان وكانوا يفوقوننا عددا وبيننا وبينهم مجرد سلك شائك يتبدي كفاصل وهمي لكن اجتيازه صعب جدا ويحتاج إلي ترتيب مسبق.. وكان بعض المعتقلين من الإخوان يتململون من اعتقال بلا أمد ولا يعرفون نهاية لهذا الوضع.. وتصور بعضهم بأن اعلانا منهم بتأييد نظام عبد الناصر قد يؤدي إلي إخلاء سبيلهم..

وانقسم الإخوان إلي "مؤيدين" و"معارضين" وبعد فترة تصادم الفريقان وتعالت صرخات الصدام لتصل إلينا.. وانسكبت مرارات حقيقية بين الفريقين .. وفجأة وعند الفجر ضج معسكر الإخوان بهتافات مدوية "الله اكبر ولا عدوان إلا علي الظالمين.. الله اكبر ولله الحمد" وفيما تثور الدهشة تدحرج عبر خط السلك الشائك عم الشيخ سعيد (والشيخ سعيد واحد من اوائل الإخوان الذي زاملوا حسن البنا في الايام الاولي لوصوله إلي القاهرة) وهو أول من حمل بوقا من صفيح وارتدي جلبابا اخضر وتجول وهو يهتف في شوارع وحارات قسم الخليفة داعيا إلي مساندة دعوة الإخوان.. دعوة الحق وكان يمتلك "كاريزما" طاغية وسط الإخوان وكان ينادي للكبير من الإخوان يا ولد. ولم يكن يوافق علي سياسة الإخوان ولا علي مواقفهم ولا علي علاقاتهم ببعضهم البعض..) وكان علي علاقة حميمة بنا وبالتحديد مع محمود توفيق وكثيرا ما يزورنا مفسرا ذلك بأنه يريد ان يتحاور مع بني آدمين مش ببغانات. المهم فسر لنا عم الشيخ سعيد الأمر.. فالشيخ شريت احد قادة الجماعة ومفسر احلامها أغفي قبيل الفجر وكان أن حلم بأن عجلا علي رأسه تاج من ذهب ويجلس علي كرسي من ذهب ثم يسقط فجأة ويسقط التاج.

والتفسير واضح فسقوط التاج يعني سقوط النظام وعبد الناصر معا. وقال عم الشيخ سعيد أنها تمثيلية تحاول اقناع من انحازوا إلي معسكر تأييد عبد الناصر بأن الافراج عنهم قريب وأن عبد الناصر سيسقط ولا مبرر للانشقاق عن الجماعة.

وفي صباح اليوم التالي وبعد الفجر بقليل حامت طائرة هليوكبتر وبدأت حالة من الارتباك في الإدارة، ثم الهليكوبتر تهبط وبروجي يدوي "سلام اللواء" تطلعت ابصارنا إلي غرفة المأمور ورأينا اللواء اسماعيل همت الذي نعرفه.. واعرفه انا شخصيا وعرفت مدي وحشيته. ولكن الإخوان يعرفونه اكثر فقد عذبهم في السجن الحربي، وقف اللواء (نائب مدير عام مصلحة السجون) وحوله كوكبة من المأمور والضباط، أما الإخوان الذين ذاقوا شراسة "همت باشا" وتعذبوا علي يديه فقد انزاحوا سريعا جدا إلي خيامهم في خوف، بينما اللواء والمحيطون به عبروا السلك الفاصل واتجهوا إلي خيام الإخوان وبعدها بعشر دقائق دوي البروجي مرة اخري وحلقت الهليكوبتر وأنتهت الزيارة. وازددنا فضولا وتدحرج الشيخ سعيد ليطفئ ظمأنا لمعرفة ما كان.. اللواء سأل "فين خيمة الشيخ شريت؟ وأشاروا إليها فرفع باب الخيمة ليجدوا شريت مكوما في ركن الخيمة وهو يرتجف، همت قال في مرح "شيخ شريت ازيك؟ وقبل أن ينطق باغته همت "الريس بيسلم عليك وبيقول لك ابقي اتغطي كويس وأنت نايم علشان تحلم صح".

وعاش الإخوان لزمن ليس بالقصير يغلفهم الخوف من بعضهم البعض فكيف تسرب خبر الحلم بهذه السرعة؟ وكيف عرف عبد الناصر بأنه حلم الشيخ شريت، وكان الهدف من زيارة همت واضحا وهو ابقاء حالة الانقسام كما هي وحلم الافراج عبر التأييد كما هو. (ولابد لنا أن نتذكر أن مفسر احلام الجماعة بعدها بأكثر

من نصف قرن فعلها في ميدان رابعة عندما طال الأمد وكاد الصبر أن تنفذ ذخيرته من بعض المعتصمين فأعلن ما قال، أنها رؤيته حيث رأي سيدنا محمد نائما علي حجره، ثم أتي مرسي ونام أيضا ثم طلب الرسول "قوم يا محمد كي تؤم الصلاة..وهلل الإخوان وكبروا.. وصدقوا".

ويقتادنا هذا الحديث عن همت باشا إلي واقعة سابقة.. في سجن آخر هو سجن القناطر وكان طابور المحبوسين تحت التحقيق يسير بنا ونحن حفاة (لأن الاحذية ممنوعة بأمر الأمن) وملابسنا من خيش ابيض والملابس الداخلية ممنوعة بأمر الأمن.. والحصي لم يعد يؤلم الحفاة فقد تعودت اقدامهم علي ذلك.. وفجأة "سلام اللواء" وصراخ مدوي "أنتباه" وتوقف الطابور وامامنا وقف نفس الكائن.. اللواء اسماعيل همت. واللواء همت لا يأتي ابدا ومعه خير وانما شر مطلق. امتد اصبع همت مشيرا نحوي أنت. وحاولت عيناي أن تتجاهلا اتجاه الاصبع لكن الاصبع استمر محددا سهمه نحوي. خطوة للامام وخطوت "اسمك، مهنتك، ثم.. ليه أنتم ضد الرئيس عبد الناصر؟ قلت ذات الاجابة الملتبسة والتي اسميتها أنا بعد ذلك بسنوات عديدة الاجابة الرمادية.. فلا نحن ضده لأن عبد الناصر يعادي الاستعمار والصهيونية ويبني لمصر وطنا مستقلا وللفلاح اصلاح زراعي وقطاع عام وسد عالي.. ومجانية تعليم.. وفي نفس الوقت نحن لا نقول نعم مطلقة فلا حريات ولا ديمقراطية والتعذيب الوحشي في السجون.. وطبعا لم أقل هذا بالتفصيل وانما اكتفيت

بأسباب التأييد ثم ونختلف حول مسألة الديمقراطية والحريات.. ولكن همت واصل الضغط كي يستدرجني فقد قرر تقديم وجبة من درس شديد القسوة للجميع.

أنا قلت عبد الناصر ضد الاستعمار والصهيونية .. فأسرع قائلا خلاص التفت لاخوانك واهتف يعيش عبد الناصر فقلت : الهتاف هنا في السجن يصبح ذا مذاق ذليل ولا مبرر له، فقال طيب الكلب خروتشوف شتم عبد الناصر وقال عليه أنه شاب طائش، اهتف لزملائك يسقط خروتشوف فقلت وقد استجمعت كل ما امتلك من انفاس "ماينفعش". واطال اسماعيل همت حبل الاستجواب السخيف، مش بتقول انكم مع عبد الناصر.. فقلت معاه في حاجات "بس" إحنا وانفجر همت ملتفتا للمأمور (عباس الرمالي) الولد بيقول لي "بس" يا عباس. أنت معرفتش تربيهم يا عباس.. وكانت اشارة البدء وكان الكاب ذو الشريط الاحمر يهتز من فرط الانفعال وتجاوب عباس سريعا وكانت ركلة منه كافية لإلقائي أرضا وهي أيضا مجرد اشارة صامتة فإنهالت العصي والشوم واللكمات والشتائم والاحذية تطحن الجسم كله بحجمها الميري الثقيل.. وبدأت استشعر حالة خاصة جدا لا يعرفها إلا من يتعرض لمثل هذا التعذيب الوحشي فبينما الركلات تتصارع من يسبق أولا والاحزمة بأطرافها النحاسية تدق عظامي لم يعد الانسان يشعر بشيء.. كان فقط وكأنه يري جسدا آخر يضرب وهو فقط يتعاطف معه. لكن الآلام تأتي بعد ذلك عندما يحملونك ويلقون بما تبقي منك إلي اسفلت زنزانة انفرادية..

ويتبقي صوت همت صارخا يبقي في الانفرادي حتي اصدر أنا أمرا بالعفو عنه. ثم كان الانفرادي الذي هو اصعب ما في السجن لعديد من الاشهر فقد نسي همت الأمر كله بعد خروجه. والانفرادي هو الوضع الاكثر صعوبة عند أي سجين فهو يستشعر أن الوقت متوقف ولا يريد أن يمضي ، بينما آلام حفلة الحوار معي لم تزل باقية.. لتلقن السجين مقاربة ناصرية من نوع خاص لكنها تلخص احد جوانب الناصرية في التعامل مع من يؤيدون.

ونأتي إلي المقاربة الثالثة.. شاب صغير ذكرني بأيام طفولتي أتي إلي سجن جناح محكوما عليه بعامين. عامان فقط امر لا يحدث كثيرا لكن التهمة تبرر ذلك فقد انطلق إلي الشارع في ذات يوم تأميم قناة السويس ليوزع منشورا طبع علي عجل ووزع علي عجل يؤيد تأميم القناة ويدعو الجماهير للالتفاف حول الرئيس ودعمه لحماية مصر من أية مؤامرات داخلية أو خارجية وطبعا عبارات المنشور تفيض بالتأييد وهذا يسعد النظام لكن ما يغضب رجال النظام هو أن توزيع أي منشور هو بذاته جريمة وتصبح الجريمة مضاعفة إذا كان التوقيع (الحزب الشيوعي المصري الموحد - وكانت مجموعة من المنظمات اهمها حدتو قد توحدت بينما كنا في السجن تحت هذا الاسم) وكان الفتي يحاول أن يبدو قدر الإمكان متماسكا .. لكنني وأنا الذي مررت بهذه التجربة من قبل أعرف ما يمكن أن يكمن في أعماق هذا الفتي خاصة في هذا الموج المتلاطم.. ولا أحد يلتفت إليه فلا أحد يعرفه وهو لا يعرف أيا من الاسماء

المعروفة خارج السجن.. ومنحته قدرا كبيرا من اهتمامي حتي يتأقلم علي الحياة في هذا المعترك خاصة وأن الحزب كان قد تعرض لخلافات بين مكوناته.. وهو لا يعرف مع من كان مسئوله (الذي لا يعرف اسمه الحقيقي.. المهم اصبحنا أصدقاء وكنا نتمشي معا بعيد عن الصخب.. وبدأ يحكي. وانا انقل روايته منسوبة إليه ووفق ما قال. وتبدأ حكاية الفتي علي حنيطر.. بوالده أحمد افندي حنيطر وكان مدير مكتب بريد وكان صديقا حميما وقديما لعم عبد الناصر حسين والد جمال عبد الناصر. وكان ولي أمر جمال في القاهرة. وجمال يتحاشي السفر لبيت ابيه بالاسكندرية حيث توجد زوجة الأب. وكانت الست أم علي (الذي لم يكن قد ولد بعد) تعطف علي جمال.. تأوي وتطعم وتغسل ملابسه وتكوي ما يستحق المكوي بحنان يحاول تعويض فتي فقد أمه. ثم تخرج جمال وأصبح ضابطا وتباعدت السبل.. وفجأة وبعد سنوات التباعد ظهرت صورة جمال في الصحف ثم أصبح رئيسا. حاولت الست أم علي أن تقنع احمد افندي حنيطر أن يتصل بجمال لعله يحصل علي ترقية ما، وكانت تقول "ده احنا ياما خدمناه ولن ينسي ذلك.. لكن احمد افندي يصيح بكبرياء ده ولد عاق ولم يتصل بنا ولا مرة واحدة منذ تخرجه فكيف نطلب منه شيئا وقد اصبح رئيسا. ومرت الايام حتي قبضوا علي الابن الغالي الذي اتي بعد حفنة بنات وهو مجرد ابن سبعة عشر عاما. قررت الأم أن تضرب بعناد احمد افندي وكبريائه متحججة "بقلب الأم" وان جمال طيب ومش حيكسفها،

وبمعجزة حصلت علي رقم من ارقام بيت الرئيس وتصورت في خيالها أنه سيرد عليها بنفسه "وازيك يا جمال عامل ايه يا حبيبي" لكن صوتا خشنا رد عليها بعدوانية قالت ببساطة "قول للريس مدام عمك احمد حنيطر عايزاك ضروري.. وهو عارفني كويس قوي" وتنقلت المكالمة من صوت إلي صوت وفي كل مرة تكرر هذه الجملة بلا ملل، اخيرا جاءها الرد الأكثر خشونة "إذا فيه أي حاجة ابعتي طلب مكتوب علي مكتب الرئيس". أم علي أنهارت جنب التليفون وهي تبكي "اخص عليك يا جمال".. وعلم احمد افندي وثار هائجا "ده معبرناش لما بقي ملازم.. عايزاه يعبرنا لما بقي رئيس ولأول مرة اقسم بالطلاق بالتلاتة ألا يتصل احد من طرفه.. بجمال.

***

وتهادت سنوات السجن في جناح .. وأتي الافراج.. وبعدها فترة هروب ثم قبض ثم محاكمة أمام مجلس عسكري عالي مليئة بحكايات عن رئيس المجلس العسكري الفريق هلال عبد الله هلال قائد سلاح المدفعية الذي لم يكن له أي علاقة بأي قانون وبتداعيات بعضها مثير للدهشة وأخري مثيرة للضحك.. وصدام خفيف مع سيادة الفريق.. الذي لسبب ما صمم أن يسمع صوتي مترافعا عن نفسي (ربما لأنني كنت لم أزل الاصغر سنا) بينما الرفيق شهدي مسئولنا قد نبه علي "لا تنطق فأنه لا يوجد علي الاطلاق أي شيء ضدك وقد يستدرجك القاضي كي تخطئ فيجد ما يبرر الحكم عليك." المهم خلال المرافعات نودي علي اسمي ووقفت وطلب

الفريق مني أن اترافع عن نفسي (وكان كل القادة في القضية يترافعون محددون مواقف سياسية واضحة تربك المحكمة فالتهمة أننا تطالب بتأميم ملكية الغير، والحكومة اصبحت تؤمم.. والتهمة الاخري أننا نسعي لاقامة نظام علي نمط ما فعله لينين وستالين، والنظام اتفق علي بناء السد العالي مع هذا النظام وسلح جيشه بسلاحه.. والعلاقة معه في عصرها الذهبي) وصمم القاضي أن اتكلم وأنا أكرر أن عندي محاميان سيتوليان الدفاع عني.. وهو يقول أنا عايز اسمعك وأنا لكي اتهرب منه أقول معرفش واخيرا وبملل شديد امسك قلما وكتب امام اسمي وبصوت عالي سمعه الجميع- يعاقب بالسجن خمس سنوات اشغال. والمثير للدهشة ان الفريق نادي المحامي الموكل عني كي يترافع بعد أن أعلن الحكم.. وارتبك المحامي.. فالقاضي اصدر الحكم فما قيمة المرافعة.. ولم يكن المحامي مقاتلا وكان قد شاهد قبلها بعشر دقائق رأس الذئب الطائر.. فقال مرتجفا .. يا سيادة الرئيس الأسر ترجوكم الأمر بتسليم الطعام فور وصوله حتي لا يركن لفترة طويلة ويصبح من الصعب أكله. اما عن موضوع الدعوي فأنا افوض عدالة المحكمة في الأمر.

ولكن ما هي قصة رأس الذئب الطائر

المحامي احمد البديني اكتشف اكتشافا مذهلا.. فقد تشكل المجلس العسكري العالي بقرار من الحاكم العسكري الذي منح هذه السلطة بموجب قانون الطوارئ لكن النظام كان قد "نسي" نعم

"نسي" تجديد حالة الطوارئ وتدارك ذلك بعد شهرين لكن قرار تشكيل المجلس العسكري العالي قد صدر خلال هذه الثغرة التي لم يكن فيها رسميا حالة طوارئ. وبذلك صدر قرار تشكيل المجلس العسكري العالي بلا سند قانوني.. وصدر باطلا. (وكان وجود حالة الطوارئ ضروريا ليتمكن رئيس الجمهورية من محاكمة مدنيين أمام مجلس عسكري عالي. وبهذا الاكتشاف المثير تلاعب الأستاذ البديني بالمحكمة "القرار صدر باطلا وما بني علي باطل فهو باطل- والتجديد اللاحق لحالة الطوارئ لا يجدي فهو لا يزيل البطلان ومن ثم فالحل أن تنتحي المحكمة وأن يعاد تشكيلها من جديد بمرسوم جديد. كان الفريق قائد سلاح المدفعية شبه نائم وحتي لو كان يقظا لما امكنه تفهم الأمر.. الوحيد الذي كان دوما يقظا ويفهم في القانون هو المدعي العسكري الذي مال علي عضو اليمين لتنتقل الهمسة إلي اذن الفريق فاستيقظ واعتدل، ثم مال مرة أخري علي عضو اليمين محاولا فهم الأمر ومال عضو اليمين علي المدعي العسكري واستطالت الهمسة هذه المرة وفهم الفريق أن الأمر خطير فصاح في المحامي بتقول ايه يا أستاذ؟ أنت عايز ايه بالضبط؟. فأعاد الأستاذ البديني اطروحته القانونية المنطقية، ولكن كيف يمكن محاصرة نمر مفترس بالمنطق؟ وفيما يشرح البديني اطروحته مرة أخري صاح الفريق أنت عايزنا نروح بيوتنا ونلم ورقنا؟ هي المسألة لعب عيال؟ احنا هنا بقرار من رئيس الجمهورية، وحاول البديني أن يجادل ففوجئ بقذيفة مدفع من قائد سلاح المدفعية "إخرس" وقبل

أن يفتح فمه مرة اخري اتته قذيفة اخري "اسكت . امشي اطلع بره . وخلع البديني الروب فيما يغادر صاح القاضي فين مسئول الأمن فأنتفض شخص يجلس وسط المحامين وهو يصيح افندم ورد القاضي شوف الافندي ده . . وبالفعل اسرع ضابط الامن ليضع يده علي كتف المحامي واقتاده إلي الخارج وإلي المعتقل .

تلاقت أعين المحامين . . فلا فائدة من الدفاع . ولكن المتهمين تولوا الدفاع . . والتهمة التأميم وقد صدرت قرارات بتأميم الصحافة وتأميم البنوك وقرار الاتهام يوجه تهمة وفق نص المادة ٩٧أ من قانون العقوبات وهي الدعوة للاعتداء علي ملكية الغير . والآن اصبح الاعتداء علي ملكية الغير سياسة حكومية مقررة . وبدأ المدعي العسكري المدرب في مرافعته الاخيرة محاولا أن يسد ثغرة التأميمات المباغتة فحاول أن يتهم المتهمين فإذا به وكأنه يهاجم الحكومة ، وأن يدافع عن الحكومة فتبدي وكأنه يدافع عن المتهمين وزاد الأمر ارتباكا . . فأسكته الفريق ولعلها المرة الاولي التي يأمر فيها قائد المحكمة المدعي العسكري بالسكوت . وبعدها بدأ عدد من المتهمين ممن كانوا ابطال معركة بورسعيد (١٩٥٩) في الدفاع عن انفسهم واحضروا شهودا مرموقين شهدوا بأن هؤلاء المتهمين كانوا أول من تسلل إلي بورسعيد وقادوا المقاومة الشعبية فيها . . وقال أحد الشهود هؤلاء ابطال قاوموا الاحتلال . . وكان الشاهد واحدا من قادة المخابرات الذين عملوا في بورسعيد تحت الاحتلال . . وازداد القاضي ارتباكا . . واختتم شهدي عطية المحاكمة بمرافعة اخيرة قال

فيها للفريق أحذر سيادتكم من أننا تلقينا معلومات مؤكدة من أنهم يعدون لنا مجزرة في سجن أبو زعبل.. ورد القاضي أنتم في حماية المحكمة حتي تصدر الاحكام.. ولم يهتم السجانون المتوحشون بحماية الفريق للمتهمين.. واغتيل شهدي نفسه علي بوابة أبو زعبل ربما كرسالة لنا جميعا.. التعذيب الوحشي سيحدث حتي رغم أنف المجلس العسكري العالي. ورئيسه قائد سلاح المدفعية.

وبدأت مرحلة سجن أخري. لكن هذه المرة في سجن صحراوي يبعد عدة كيلومترات عن سجن جناح ولكنه مبني من زنازين واسوار شاهقة.

ويمتد الحال إلي ابريل ١٩٦٤..

***

ومن جديد ابدأ حياة جديدة.

وعبر إلحاح من محمود المناسترلي (عضو الضباط الاحرار - وزوج اخت ليلي) قال خالد محيي الدين ابعته لعلي الشلقاني وانا سأعطيه الأوكي.. وأتت الاوكي وتوجهت لاقابل علي الشلقاني.. وهكذا دخلت إلي قلعة الصحافة.. من الاستعلامات إلي الاسانسير إلي الدور التاسع الجميع مندهشون فالدور التاسع في هذا الزمان هو قدس اقداس مؤسسة أخبار اليوم لا يصعد إليه إلا كبار الزوار أو رؤساء التحرير وكان علي الشلقاني كما اعتدت معه بعد ذلك مشغولا أو متشاغلا. كان مبتسما ومترفعا ومنهمكا في آن واحد يخطب بصوت عالي في التليفون لم يشر إلي بالجلوس وأمسك

قطعة ورق صغيرة وشخبط عليها سطرا واحدا ثم ناولني اياها وبهذه الورقة انفتح امامي عالم الصحافة "يعمل بمكافأة شهرية ثلاثون جنيها من اليوم.. ثم شخبطه أخري تبدو كتوقيع والتاريخ ٢٦-١٢-١٩٦٤ ونطق اخيرا اشوفك بكرة قالها بعد أن اشار إلي غرفة مجاورة.

وهناك التقيت برفاق السجن الذين سبقوني بفضل خالد محيي الدين إلي أخبار اليوم.. كنت الاخير، فأنا القطرة التي وبالمصادفة جعلت الكوب يمتلئ. وبعدها كانت مكالمة من عبد الناصر كفاية تعيينات عندك. وكان الصحفيون والاداريون من أبناء أخبار اليوم لا يحتملون لا نظراتنا ولا حتي انفاسنا كانوا يسمونا "الهنود الحمر".. كنا نذهب ونجئ ونتفاني بالفعل في العمل ونتلقي سلامات عليها ابتسامة ماسخة وبلا معني. وكانت كل الاحكام السابقة قد سقطت بعفو من الرئيس عن كل الرفاق وسقطت معها احكام المراقبة الليلية (أن تبقي رهن البيت من الغروب إلي الشروق) وآن لي أن أري كيف يكون ليل القاهرة.. وكان سامي جوهر الصحفي المخضرم والجميل جداً ومسئول الطبعة الثانية يلح علي في أعيش معه حياته الليلية" ويردد عبارة لكامل بك الشناوي "القاهرة مدينة ليلية"، وفي البداية كانت مهمتي في الأخبار سخيفة وبلا أية مساحة من التفكير الخلاق. فبعد مشكلات عديدة أثارت غضب عبد الناصر كثيرا.. امر خالد محيي الدين أن أعمل في قسم الابحاث.. الاسم مغري. لكن الواقع كان غير ذلك، فالقسم كان

به اثنان رفعت طنطاوي وحنفي سليمان تتلخص مهمتها في مراجعة شرائح من ورق مبلل تسمي السلخ تضم كل ما سينشر وتشمل مهمتها مراجعة المعلومات والاسماء والوظائف وكذلك قواعد اللغة التي افلتت من المراجعين.. وانضممت اليهم في مهمة ثقيلة الظل. فمحرري الأخبار وعلي رأسهم علي ومصطفي أمين كانوا لايزالون في ظل حكم عبد الناصر يستخدمون المفردات الأمريكية النكهة وكانت مهمتي أن اصحح هذه المفردات إلي ما يمكن تسميته النكهة اليسارية أو الناصرية كمثال :

دول الستار الحديدي = المعسكر الاشتراكي

الصين الشيوعية = الصين الشعبية

عصابات فيتنام = ثوار فيتنام

عصابات أيوكا القبرصية = ثوار أيوكا.

وفوق ذلك كانت ثمة أخبار غير ملائمة .. أو غير مدققه . كنت اقوم بتصحيحها واتقنت هذا العمل بسرعة وكانت عيناي تكتشفان علي الفور ما يجب شطبه أو تعديله. (والحقيقة أن السبب في الاسراع بالحاقي بهذه المهمة هو ان الأخبار نشرت خبرا عن عودة السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية إلي ارض الوطن وأضافت (وكان في استقباله عدد من كبار "الشيوعيين") صعق حسين الشافعي وصعق خالد محيي الدين واتضح أن يدا امتدت لتشطب كبار "المسئولين" وتحل محلها كبار الشيوعيين. وجري تحقيق دقيق ولم يكتشف الفاعل وكنت أنا الضحية التي تم

اختيارها (لضمان عدم تكرار ذلك) وأوامر رئيس مجلس الإدارة تحتم أن أوقع علي كل السلخ حتي تطبع.. وكنت اقضي ساعات طويلة وجاري استاذ اساتذة الديسك المركزي الأستاذ فهمي عبد اللطيف.. الذي أعجب بمهارتي في اكتشاف الاخطاء واسماني ترجمان الثورة، والرئيس عبد الناصر لا يتسامح في أي خطأ فأي خطأ يهز سحبا رعدية تأتي بصواعق غير محسوبة. وقبل أن تدور المطبعة بالطبعة الاولي تستعد ثلاثة موتسيكلات كل منها تتلقف أول ما ينسكب منها من اعداد (أما لماذا ثلاثة موتوسيكلات فهو لضمان وصولها فقد يتعطل احدها وقد تقع حادثة) وبعدها تأتي تعليمات وتصحيحات من مكتب الرئيس.. لتبدأ الطبعة الثانية.

وبعد حوالي الشهر استدعيت إلي الدور التاسع لأقابل الأستاذ خالد.. كانت المرة الثانية التي اراه فيها، الاولي عندما قابلني عرضا وقال ضاحكا "الحمد لله انك تعينت علشان المانسترلي يبطل زن"..
وفي الطريق عبر السجادة الحمراء همس احد الزملاء من "الهنود الحمر" كما كانوا يسموننا في همساتهم، الأستاذ خالد عايزك تبقي مدير كتبه.. تسارعت دقات قلبي الذي احسست به وكأنه يتدحرج أمامي علي السجادة الحمراء المعبره عن فخامة واحترام من يدوسون عليها. ولست ادري لما توافقت مخاوفي مع مخاوف ليلي وكنا لم نزل مخطوبين وبسرعة اتفقنا علي أن نرفض.

***

واستأذن القارئ في وقفة قصيرة مع استاذ الصحفيين وأجمل الحكائين كامل بك الشناوي.. فقد نجح سامي جوهر اخيرا في اغوائي أو هو أغواني بأن انضم إلي بعض الحواريين الذين يقضون ما تبقي من انفاس الليل في صحبه كامل بك، قال لي تعالي فسوف تري القاهرة بجد. ومع دوران المطبعة بالطبعة الثانية تمشينا إلي فندق سميراميس (القديم) حيث قاعة نصف مظلمة اسمها "نايت أند داي" كان كامل بك والحواريون يملأون الدنيا صخبا .. نظر كامل بك شذرا نحوي وسأل بصوته الجهوري مين ده- فهمس سامي جوهر في أذنه فأنفرجت ابتسامة لم تزل متشككه وسألني تعرف صلاح حافظ؟ .. والاجابة طبعا كنا معا طوال اغلب فترة السجن فاتسعت مساحة الابتسامة المطمئنة وفيما بدأت جولة المساء قال كامل بك سنمشي إلي النحاسين لنأكل أحلي نيفة وهمس سامي جوهر في إذني كامل بك لا يغفو إلا مع طلوع النهار فعنده مشاعر خوف من النوم في الظلام.. ويردد دوما خوفه من العودة للبيت في الظلام.. وفيما نتمشي بتؤده علي مقاس خطوات كامل بك سمعته يدندن ببعض ابيات من الشعر الجميل. وأنتظرت حتي أنتهي وقلت أنا احفظ بعضا من اشعارك السرية فأنتبه قائلا زي ايه؟ وبدأت بأبيات من شعر قاله خلال اعلان حظر التجول بعد حريق القاهرة وكانت طبعا اياما شديدة القسوة علي كامل بك المتجول الليلي..وأنشدت.

قال لي الحارس قف من أنت في صوت مدوي

قلت قل من أنت يا حارس قبلي

وسلاحك الفاسد المنهوك سلطة علي من ارسلوك

لا علي الساري فقد ترمي يميناك اخوك

توقف الجميع لينصتوا فقال كامل بك وإيه كمان.. فقلت من قصيدة أخري

ياترسملونا يا تبلشفونا ينعل ابوكم علي ابونا

وسأل كامل بك هامسا ونحن نمشي بعد أن اتكأ علي كتفي في مودة شفت الشعر ده فين؟ قلت في مجلة "الكفاح السرية" فقال "يا نهار أسود. ومين قالك ان الشعر ده بتاعي فقلت وقد زال الحرج صلاح حافظ وصاح.. ابن"....." وسأل الآخرون ولم يجب ولا أنا اجبت.. ولكنني وبعد عدة ايام وكنا في طريقنا لنأكل أحلي طعمية عند الحلوجي قلت كنت عاوز أسألك يا كامل بك علي حكاية حضرتك مع الريس عبد الناصر.. فقال في مودة "احتشم يا فتي" وألحت وإلح الجمع وانا شجعته أنت ستحكي وأنا سأحكي ما أعرف.. وحكي كامل بك.

ذات يوم قرر الرئيس (عبد الناصر) أن يلتقي شهريا مع رؤساء تحرير الصحف ويتباسط معهم واتجه الرئيس إلي كامل بك "ايه اخر نكتة يا كامل بيك" فرد "أنا لا اسمع نكت يا ريس وما ليش في النكت"، فضحك عبد الناصر يا راجل انا عارف كل حاجة وعارف انك فابريكه نكت.. قول آخر نكته.. وبعد تردد من جانبه وإلحاح من الرئيس قال كامل بيك اديني منديل الأمان ياريس، وأخرج عبد

الناصر من جيبه منديلا واعطاه كامل بيك الذي كان لم يزل مترددا لكن التململ تبدي علي وجه الرئيس وخشي البيك من سوء العاقبة فقال بيقولوا أن سيادتك أمرت بمنع مساحات العربيات.. وسأل عبد الناصر ليه؟ وأشار البيك بحركات سبابتي اليدين وهما تهتزان مثل المساحات وقال علشان المساحات بتقول لأ.. وضحك عبد الناصر بتحفظ وقال له خلاص دي تبقي آخر نكته.. وصمت كامل بك، واكمل عبد الناصر آخر نكته فهمت؟ فرد حاضر ياريس .(ولكنه لم يستطع ابدا أن يتوقف وكان فقط يهمس بنكته في آذان خاصته) لكنه قرر أن يأخذ ثمنا فقال للريس وهو يلوح بمنديل الامان يا ريس فيه ولد صحفي زي الفل وصحفي اكثر من ممتاز وغواه اولاد الحرام.. فاتسجن 8سنين وسأل عبد الناصر مين ده؟ والاجابة صلاح حافظ وقال عبد الناصر ده بتاع أنتصار الحياة (وكان هذا عنوان عموده الشهير في روزاليوسف) واجاب كامل بيك ايوه يا افندم. وسأل عبد الناصر تضمنه؟ أضمنه يا افندم ده انا اللي مربيه. وقال عبد الناصر خلاص حيخرج بس أنت المسئول، والرد الطبيعي حاضر يا افندم" وفيما الجميع يصغون ويلتهمون اقراص احلي طعمية وهي ساخنة بدأت أنا اكمل، وصلت رسالة كامل بك إلي صلاح وهو معنا في سجن جناح وعلي المظروف نفس اللقب الاثير لدي والد صلاح حافظ "السيد الدكتور الطبيب صلاح حافظ" (كانت هذه أمنية الاب لكن صلاح خشي من أن يتخرج فتلتهمه الوظيفة فأوقف قطار التخرج ليتبقي له علم واحد علي التخرج".. ولكن الأب يعاند. وبما

أن كامل بك كان واثقا من الافراج فقد قرر أن الفتي الطائش يجب أن يتخرج.. "وبعدها اكمل كامل بك فقال "في الشهر التالي استقبلنا عبد الناصر بتحفظ وتكلم بتحفظ وأدلي بملاحظات قاسية وبعد الملاحظات تجرأ كامل بك قائلا "يا أفندم حضرتك وعدت بالافراج عن صلاح حافظ فرد عبد الناصر خرج خلاص. واستجمع كامل بك اطراف شجاعته يا افندم لسه مخرجش..وشخط عبد الناصر انا بأقول خرج. فاهم؟ وسكت كامل بك" وأكملت أنا. وبعدها بأسابيع أتي جواب وعلي المظروف السجين المذنب صلاح حافظ وبالداخل "يا ولد يا قليل الادب ازاي تخرج وتفضل في السجن وما تجيش تسلم علي". وتعالت ضحكاتنا في السجن، وتعالت أيضا ونحن في الحسين عند الحلوجي. ولم ينس كامل بك أن يحذرنا يا أولاد الـ....." محدش يفتح بقه بالحكاية دي".

***

وأعود إلي حيث كنت أتوسل لقلبي المنفلت .. ولست ادري لماذا رفضنا أنا وليلي من حيث المبدأ أن اعمل مديرا لمكتب الأستاذ خالد ربما خوفا من المسئولية مع رجل لا أعرفه وأري الجميع يبجلونه، وربما انبهارا بمهنة الصحافة.. دخلت إلي غرفة ممتده وكأنها بلا نهاية وقف الأستاذ خالد بابتسامته الحانية وأشار إلي كرسي.. اتفضل وتفضلت وأنا اقول لنفسي لا تنخدع بابتسامات هؤلاء الكبار.. قال الأستاذ خالد سكرتيري خدعني دس اوراق تعيين سيدة كصحفية وسط أكوام البريد اليومي وأسرعت الإدارة المعادية بانجاز

التعيين حتي اصبح امرا واقعا ثم أسرع احدهم ليبلغ الأمر لمكتب الرئيس الذي غضب أولا لعدم تنفيذ تعليماته، فلما قلت أنه خدعني غضب الرئيس بسبب عدم كفاءة الإدارة" وأبعد خالد السكرتير وبدأ في البحث عن مدير مكتب مؤتمن ومنظم وهادئ. وصممت علي الرفض وكنت سخيفا في رفضي أنا لا أصلح أن أكون سكرتيرا ولا مدير مكتب وأريد أن استمر كصحفي.. لكن الأستاذ خالد قال علي العموم لا تتعجل وتعالي بكرة نتفاهم، ، وفيما اخرج مسرعا محاولا أن اتنفس كان يدخل د. فؤاد مرسي- د. اسماعيل صبري ومعهما الزميل "كمال" وهو زميل ممتاز جدا ومؤتمن جدا ولكن الأستاذ خالد تمسك بي ربما تمسكا بالحديث الشريف "نحن لا نولي هذا الأمر أحداً يطلبه" وربما لأن كمال لا يعمل بالمؤسسة والرئيس أمر بعدم تعيين أي شخص جديد.. وربما لأنه كان يثق في محمود المناسترلي ومحمود يثق في.. وربما لأن الأستاذ خالد لا يحب من يندفع في تقديم نفسه ومن ثم أعجب بمن يرفض.. المهم صعدت في الغد إلي الدور التاسع.. وبقيت فقد دخلت وأنا احاول أن اتخلص من بعض الخجل الذي غلف تصرفاتي لكن الأستاذ خالد كان بشوشا وودودا وقال "أنا عندي اقتراح .. نشتغل مع بعض، ونجرب بعض وبعد كده تقرر اللي أنت عايزه.. وفي نفس الوقت لما تعوز تكتب اكتب. وسألني ايه رأيك؟ ولم أجد سوي كلمة واحدة "حاضر" وقام بنفسه وفتح بابا جانبيا يفضي إلي غرفة انيقة وعلي الجدران مكتبة مليئة بالكتب وقال "هذا مكتبك" وفيما أتأمل

مجلدات مبهرة عن تاريخ مصر وأخري بالانجليزية عن تاريخ مصر أيضا. دق التليفون المشترك وقال الأستاذ خالد تعالي.. وفتحت الباب الجانبي وجلست وبدأت العمل وأخذ الأستاذ يشرح لي مهمتي لاكتشف أنني أمام مجمع اسرار بلا نهاية واجلس علي اطراف قمة متفجرة بالاهمية. اسرار من كل نوع ومن كل إتجاه أسرار شخصية مكتوب اعلاها "للعلم" بها كل ما يلتقطه محررو الأخبار من كل مكان، واسرار سياسية وحتي عسكرية ومعلومات عن تحركات السفراء العرب والاجانب، كلها تتجمع في ملف عنوانه للعلم أي ليس للنشر، وليس للثرثرة ولا للحديث عنها لأي شخص هكذا كانت تعليمات الأستاذ خالد. ثم أول كلمة قالها لي، كن حريصا ولا تخذلني فينقل عنك ما يسئ إلي.. ولا تأمن للابتسامات المحيطه بك فقد تكون معك وقد تكون ضدك. ثم صمت قليلا وقال "هل سمعت المثل القائل "الافيال تتصارع والعشب يتكسر" أنا لي خصوم لن يطالوني بسهولة فلا تكن أنت العشب" وبعدها بيوم واحد سمعت نفس المثل من الأستاذ حسين فهمي وكان واحدا من رؤساء تحرير الأخبار المرموقين وكان يساريا أو بالدقة متعاطف جدا مع اليسار، لكنه قال ذات المثل بالانجليزية وترجمته الدقيقة "لا يهم العشب إذ يتكسر إذا كانت الافيال تتصارع أو تمارس الحب" ، واعترف أن العبء كان ثقيلا علي فتي ريفي قضي كثيرا مما فات من عمره في السجن ويعيش في خضم صحفي مبتسم ولكنه رافض، ويتصيد أي خطأ. وبدأت لأواجه

بعضا من المشكلات من أصدقاء عرب وأجانب ومصريين هم أصدقاء وأحباء ومخلصون في صداقتهم ولكنهم يعيشون في الوهم أننا وصلنا إلي السلطة وأن مصر في ايدينا والتحكم في مؤسسة الأخبار هو مفتاح المشاركة في السلطة.. وكان الأستاذ خالد قد افهمني حدودنا..وحذرني ثم تركني أواجه هذه الاوهام .. كنموذج كان في مصر ممثل للاكراد العراقيين وكان فيما يبدو يساريا وما أن جلست في مكتبي الجديد حتي ظل يلاحقني بزياراته كل يوم ويجلس ويحاول أن يحضر المقابلات وأن يقدم آراء.. وأن يطلب احيانا مساندات غير ممكنه بنشر أخبار يومية أو شبه يومية عن الاكراد.. ولم يكن هذا ممكنا فقد افهمني الأستاذ حسين فهمي أن التعليمات العليا تمنع.. ولكن الصديق الكردي واسمه فيما اذكر دكتور شوكت عقراوي يطاردني مطالبا بالنشر وتستطيل زياراته وتتكاثر وإستفهمت من الأستاذ خالد فقال "اتصرف" ولعله كان يجربني ويدربني.

أما الرفاق السودانيين فقد صنعوا لنا اكثر من مشكلة.. ففي البداية طلبوا أن يكون منهم مراسل في الخرطوم ليراسل جريدة الأخبار ووافق الأستاذ خالد وكان ذلك قبل صعودي إلي الدور التاسع. فما أن صعدت حتي تصوروا أن الشخص الغريب قد رحل ليحل محله "رفيق" ليحل المشكلات. لكن الرفيق المراسل السوداني كان يتصور أنه مراسل الحزب الشيوعي السوداني فقط وكان يمطرني كل يوم بأخبار منقولة من جريدة "الميدان" جريدة الحزب

الشيوعي السوداني ووصل الأمر إلي أخبار عن سفريات قادة حزبه "الرفيق فلان سافر إلي البلد الفلاني" ولم تكن هذه الرسائل تصلح للنشر بأية حال.. ولم أكن استطيع تحذيره عبر وسائل مسموعة أو تلغرافية.. وهو لم يستجب مطلقا لتحذيراتي الشفوية التي ارسلتها مع رفاق سودانيين كانوا كثيرا ما يبدأون زيارتهم لمصر بزيارة مكتبي وكانت المشكلة عندما ارسل لي (وكانت تعليمات الأستاذ خالد أن تسلم لي برقياته). والبرقية تقول "يصلكم الرفيق عبد الخالق محجوب السكرتير العام للحزب الشيوعي السوداني رجاء تسليمه مرتبي لثلاثة اشهر القادمة" حملت البرقية الي الأستاذ خالد وقلت مستشعرا خطورة المسألة "طبعا كل من قرأ البرقية في الإدارة سوف يرسل تقريرا، ورد الأستاذ خالد بغيظ "التقرير حيكون وصل من مكتب التلغراف". وقال : لا تحرجني مع عبد الخالق محجوب أنتوا قرايب مع بعض واشرح له الموضوع. وبالفعل حضر عند الظهر عبد الخالق محجوب مصطحبا معه أحد كبار كبار القادة الشيوعيين المصريين هو الشاعر كمال عبد الحليم ففزعت أكثر.. وتحايلت حتي دفعت كمال عبد الحليم للمغادرة. واغلقت الباب بالمفتاح لكي لا يقلقنا احد وأن كنت واثقا أن بالجدران وما هو مثبت فيها سوف تنقل كل حرف وشرحت الأمر بوضوح شديد وقلت له أن مراسلكم يتصور أننا في الحكم ناسيا أن وضعنا في مؤسسة الأخبار قلق للغاية ومهدد للأنهيار لدي اول خطأ انصت عبد الخالق ثم ابتسم ثم قال نحن لم نفهم الأمر علي هذا النحو.. وسأل سأقابل عبد لناصر فهل

اناقشه في الأمر فقلت لأ. لكنه سأل عن موضوع لم أكن اعرفه فقد تم قبل وصولي إلي الدور لتاسع..وهو أنهم احضروا اصول كتاب عن تاريخ الحزب الشيوعي السوداني.. وما أن وصلت الاصول المطبعة حتي عرف عبد الناصر بالأمر، وربما كانت جهة ما ربما لم ترد أن تكشف نفسها فكلفت أنور سلامة وزير العمل آنذاك بابلاغ عبد الناصر به في اجتماع مفتوح فقد اثار الموضوع في اجتماع الامانة العامة للاتحاد الاشتراكي (كان الأستاذ خالد عضوا فيها كأمين للصحافة) وأنتقد عبد الناصر الموضوع برفق فقد كان يريد علاقة حسنة مع الحزب السوداني ولكن ليس إلي هذا الحد، أو بالدقة تتم عن طريقة هو وليس عن طريق خالد محيي الدين، وقال عبد الناصر "خلاص غلطة وتعدي بس ماتتكررش ومش عايز نسخة واحدة تتسرب من المطبعة.. النسخ كلها تصدر للسودان واحتجنا إلي اكثر من عين لتراقب النسخ وتمنع تسربها. ولم تكن الضغوط سودانية فقط، بل كانت متعددة الأنواع فالسوفييت مثلا وكانوا يمتلكون اذرعا عديدة في قمم مؤسسات القمة وجدوا أنه لا بأس أيضا من الحصول علي بعض فتافيت المعلومات المتناثرة في أوراق "للعلم" وكان رجلهم إلي أخبار اليوم واحدا من اكفأ خبرائهم "نيكولاي كوتساريف" (مدير وكالة نوفستي للانباء) وكان من ضمن من احالهم علي الأستاذ خالد واخذ يتردد علي يوميا تقريبا وفي أول يوم سألني عن "للعلم" وكان ردي جافا جدا وانكرت معرفتي بمثل هذه الأخبار لكنه ظل يطلب نشر بعض الأخبار أو

يسأل عما يكمن خلف خبر ما، وعبر كثير من الهزار والتضاحك اعتدت إلا أقول له شيئا مما يريد. وكانت المحافظة علي التوازن مع كل الاطراف غير المتوازنة مرهقة ارهاقا ممتعا.. وفي نهاية كل يوم كنت اجلس إلي الأستاذ وحدنا لأحكي ما كان وكيف كنت أنا.. واستمع إلي ارشاداته.

ولكن الأمر في أخبار اليوم كان اكثر تعقيدا فالمنافسة الحامية بين أخبار اليوم التي كانت الأكثر توزيعا وبين الأهرام التي كان الاكثر قربا من السلطة، وفوق هذا كله الخلاف المكتوم بين خالد محيي الدين وهيكل. وكان اكثر ما يقلق الأستاذ هيكل هو المقارنة بين توزيع الصحيفتين، وبالدقة التعرف علي حقيقة توزيع الاهرام ولست اريد أن ازعم أننا كنا ابرياء، فالمصادفة وحدها هي التي اعطت احد رفاقنا موقعا في ادارة توزيع الاهرام، وبالتالي كان معنا التوزيع الحقيقي وكان اقل وإن ليس كثيرا جدا من الأخبار. وأن كان اهرام يوم الجمعة يتفوق علينا وإن ليس كثيرا جدا، وبقيت مشكلة أخري وهي التعرف علي مانشيت الاهرام، وكان هيكل يمتلك مندوبا عندنا في الزنكوغراف لينقل له المانشيت وبعد معاناة شديدة استطاع الأمير العطار (سكرتير عام التحرير) التوصل إلي مندوب لنا في زنكوغراف في الاهرام وفي حوالي الخامسة من بعد ظهر كل يوم كانت كل جريدة تمتلك مانشيت الاخري لكن المشكلة الحقيقية كان تكمن في تعليمات من مكتب الرئيس "ممنوع نشر خبر كذا" ونلتزم نحن لنجد الاهرام يستخدمه" كمانشيت.

وأذكر مثلا ذات عصر يوم رتيب الأحداث لا تجد فيه خبراً يصلح كمانشيت مهما فتشت أو افتعلت ما يصلح كمانشيت يجذب القارئ. يومها اندفع إلي حجرتي الأستاذ جنيدي خلف الله محرر الشئون العربية وقال عايز الأستاذ خالد فورا فقلت عنده اجتماع المانشيت (وهو اجتماع اعتاد الأستاذ خالد أن يعقده الخامسة عصرا مع رؤساء التحرير للاتفاق علي المانشيت) فقال يلهث "أنا معايا المانشيت وفتحت الباب لأدخل جنيدي خلف الله دون استئذان ولم يترك الأستاذ جنيدي لأحد أن ينطق قال "الريس مسافر الليلة إلي السعودية"، ونزل الخبر كالصاعقة فالسعودية كانت النصل الحادث في ظهر مصر أثناء حرب اليمن ولما تشكك الجالسون رد الصحفي المتمرس والوثيق الصلات "الليلة الريس مسافر من ميناء كذا علي قطعة بحرية اسمها كذا وأنا مش صغير ومتأكد من الخبر. ولم يكن أحدنا يعرف أين هذا الميناء واحضر موسي صبري خريطة كبيرة لنجد عليها نقطة صغيرة جدا باسم الميناء. وامسك موسي صبري بقلم ليكتب الخبر وكتب المانشيت "الرئيس في السعودية" وسمعت تليفون مكتبي يرن (كان الأستاذ خالد في اجتماعاته يغلق تليفونه ويترك سماعه التحويلة عندي شغالة) وكان علي الطرف الآخر "يمنع نشر خبر رحلة الرئيس للسعودية. مزق موسي صبري الورقة وانفض الاجتماع والجميع صامتين، وبعدها بدقائق ادخلت إلي الأستاذ خالد ورقة املاها مندوبنا بالأهرام وعليها ذات المانشيت "عبدالناصر في السعودية" وقلت له كلم الرئيس فإبتسم ابتسامة واهنه "هي مترتبه كده".

لكن الأمر مازال أكثر تعقيدا من أن أحاول تفكيك العقد التي تعقده وثمة أمثلة عديدة سأختار واحدا منها . . كان الأستاذ خالد مسافرا بالخارج ويتولي الأمر مكأنه نائب رئيس مجلس الإدارة الأستاذ علي الشلقاني . . والحقيقة أنه كان اداريا اكثر من ممتاز لكنه كان يتعامل بقدر من الترفع مع كبار الصحفيين وذات يوم دخل عليه الأستاذ حسين فهمي رئيس التحرير المخضرم وسأله ببساطه ايه الأخبار يا علي بك فرد عليه "حضرتك يا رئيس التحرير جاي تسألني ايه الأخبار وأنت شغلتك انك تبلغني الأخبار؟" انا صعقت ولم اشأ أن ازيد الحرج بحضوري وتسحبت من الغرفة (وكان الأستاذ علي بالمناسبة يستعمل غرفة رئيس مجلس الإدارة في حالة غيابه) وبعد أقل من دقيقة اتي حسين فهمي سأخطا وسباب كثير يتناثر من فمه. هدأته وقلت ارجوك أنتظر حتي يعود الأستاذ خالد وبعدها تتعاتبون امامه. وسمع موسي صبري بما كان (وربما من حسين فهمي) الذي كان متفجرا بالغضب وصعد موسي إلي التاسع ربما ليعاتب الشلقاني وربما ليزيد من استفزازه وفجأة سمعت شجارا عاليا وموسي يعلو صوته ويعلو ليدوي في كل الدور التاسع . اسرعت وكانت علاقتي حسنة بموسي صبري فأخذته في احضاني وخرجت به إلي غرفتي . . ومرة ثانية قلت له علشان خاطري ننتظر إلي أن يعود الأستاذ خالد . . المهم ترامت الشتائم إلي اسماع الكثيرين ولم ادخل الي الأستاذ علي حتي اتجنب اي صدام معه لكنه طلبني شاخطا تعالي وذهبت فقال انا قررت ايقاف موسي صبري

عن العمل.. حاولت أن اقنعه بالأنتظار لكنه ازداد هياجا فحاولت كسب بعض الوقت فقلت "اقترح أن نتشاور مع زملائا اليساريين في المؤسسة، وبالفعل فوجئت بسكرتير الأستاذ علي يدعوني بعدها بحوالي الساعة إلي اجتماع مع نائب رئيس مجلس الإدارة. كنت محتارا كيف يفعلها الشلقاني وهو رجل ادارة مدرب وأيضا وهو يعرف أن معاقبة رئيس تحرير لا تأتي هكذا، فعبد الناصر هو الذي يعينهم، وهو الذي يفصلهم أن اراد وربما (اقول ربما) أن الأستاذ هيكل الذي كان لا يطيق موسي صبري قد استحث واحدا محددا من رفاقنا بمجلة الطليعة وكان وثيق الصلة بعلي الشلقاني ليشعل غضب الشلقاني ليس حبا في علي ولا كرها في موسي وانما ليقدم لعبد الناصر نموذجا من فوضي أخبار اليوم. المهم حضرت الاجتماع مرتديا ثياب الهدوء مستذكرا كل نصائح وتعاليم خالد محيي الدين وكان الاجتماع مرحا في فوضي فكل الرفاق سعداء بأن الشلقاني (الثوري) قد أطاح (بالعدو الطبقي) حاولت اقناعهم بالأنتظار حتي عودة الأستاذ خالد فهاجوا وصاح احدهم بلاش تردد وأنت عارف الأستاذ خالد طيب وعودته ستضيع فرصة التخلص من موسي صبري. وكنت مقيد الايحاءات فإنا علمت من الأستاذ خالد أن الجدران تنقل الهمسات إلي آذان تتنصت. وحسم علي الشلقاني الأمر علي طريقة الخلايا الحزبية وليس علي اساس وضع لا يسمح فيه عبد الناصر لأحد أن يمس رئيس تحرير حتي لو كان هو نفسه لا يحبه. صاح علي في فرح الموافق يرفع يده فصحت أنا بصوت عال

أنا ارفض واعتقد أن هذا خطأ وخطر. وقال اسعد حليم بهدوء حكيم وأنا أري أن ننتظر الأستاذ خالد فإن وافق يفعلها هو.. وصدر القرار وسط فرح الزملاء..وبعدها بأيام عاد الأستاذ خالد وهو في المطار وقد شرحت له الأمر وانزعج جدا ويبدو أنه كان قد تلقي تعليمات غاضبة من عبد الناصر.. ومن المطار اتصل بموسي صبري ليعود. وفي الصباح دخل علي موسي صبري ولا اعرف من أين علم بموقفي قبلني عشرات القبلات وقال أنا كنت واثق ان الأستاذ خالد سيلغي القرار ولكن أنت كنت شجاعا عندما قلت.. كذا..وكذا ولا اعرف كيف علم موسي بالتفاصيل المهم أننا صرنا أصدقاء..

وأذكر شيئا مثيرا للدهشة فبعدها تباعدت السبل لسنوات عديدة وعلمت أن موسي صبري مريض بالسرطان فسألت عليه تلفونيا. وعرفت أنه سافر إلي أمريكا.. وذات يوم اتصل بي د. ميلاد حنا وقال موسي صبري رجع من امريكا وانا اعرف انكم أصدقاء اتصل به واسأل عليه.. واتصلت وجاء الصوت واهنا جدا.. وفجأة قال علي فكرة أنا لسه ممتن ليك علي موقفك مني يوم فصل علي الشلقاني لي.. وعايز اقولك لك أنني تأكدت أن الأمر كان مرتبا كمكيده من هيكل وعن طريق لطفي الخولي. ويبقي أن الأستاذ خالد قال لي : أن عبد الناصر قال له برضه الواد بتاعك ناصح.

وساعتها تذكرت واقعة متممة فذات يوم دعاني أحد كبار زملائنا في الأخبار وجلسنا معا هو وأسعد حليم وأنا.. وكان الأستاذ خالد لم يزل رئيسا لمجلس الإدارة.. وبدأ الحوار حذرا حول الأستاذ

هيكل وكيف أنه صاحب النفوذ الأكبر وهو الذي اسس مجلة الطليعة كصوت لليسار وأن اليسار سيصعد اكثر فأكثر إذا التحق بالأستاذ هيكل.. ساعتها لم افهم بالضبط ما هو المقصود لكنني فهمت أن هناك مكيدة تدبر لصالح هيكل.. ولأنني اعرف كم الخلافات بين الأستاذين خالد وهيكل.. فقد تحصنت بثياب الفتي الريفي الذي تحتاج سذاجته إلي أيضاح اكثر.. واسرعت إلي الأستاذ خالد وتبدي لي أنه سمع بعضا من ذلك. وربما كان هذا الرفض الصامت للعرض الصامت قد ابلغ للأستاذ هيكل.. وربما كانت هذه أحد أسباب محاولة هيكل لافتراسي.

***

وتتواصل محاولات الاغواء والاغراء من جوانب مختلفة ومتعددة وفي كل مرة كان صوت خالد محيي الدين يرن في اعماقي لن يستطيعوا الوصول إلي بسهولة فحذار أن يصطادوني عن طريقك. وكان حذري أكثر ما يكون من بعض محررات كن يعملن كمصادر للأخبار وذوات مقدرة علي الاغواء والإغراء وفشلت هذه المحاولات جميعا ثم فجأة أتاني تليفون من المدير العام الأستاذ عبد العزيز عبدالعليم الذي كان يعرف اعتيادي الحضور مبكرا لأرتب نفسي وملفاتي لعرضها علي رئيس مجلس الإدارة.

وقال انا باعت لمعاليك مظروف ارجوك توقع علي الايصال. وأصل الحكاية أن صحفيا نشيطا في الأخبار اشتهر بخبطات صحفية (وفق مدرسة علي ومصطفي امين) قد حقق أنتصارات ومنها مثلا أنه

ارتدي ثياب شحات وجلس في ميدان محطة الرمل بالاسكندرية لعدة ايام ونشرت الأخبار ريبورتاجه متوجه بعشرات الصور ومعها تعليقات علي المحسنين ومنهم.. وكيف أنه جمع في اليوم الواحد مئات من الجنيهات، ومرة أخري اشتغل كعامل تراحيل وأيضا عشرات الصور فكاميرات الأخبار لاحقته خفية والريبورتاجات صعدت بالتوزيع بما دفعه إلي نشر ريبورتاجات مفبركة وصور مفبركة أيضا.. وكانت خبطات ناجحة في كل الاحوال. وعلي أية حال وصلني المظروف "وبداخله مبلغ كبير من المال ومعه ايصال استلمت أنا... مبلغ كذا بدل أنتقال ومبيت عشرة أيام في مرسي مطروح للمشاركة مع الأستاذ "ع-ح" لعمل تحقيق صحفي عن عمليات التهريب من ليبيا عبر مرسي مطروح. (وكان عبدالناصر قد تحدث في إحدي خطبه عن افواج الحمير المدربة التي تعرف طريقها إلي ليبيا وتعود وحدها محملة بالبضائع.. والتقط الصحفي الناصح هذه المعلومات وحصل علي عدد من الحمير والتقط عشرات من الصور لها وهي محملة بالبضائع في منطقة صخور ورمال المقطم.. وأعد بقدرة صحفية فذة تحقيقا صحفيا جميلا..

وكان المطلوب مني ببساطه أن استلم مبلغا كبيرا وأن استمتع باسمي منشورا علي ريبورتاج ناجح.. وامسكت بالقلم.. وكتبت "لم اسافر إلي مرسي مطروح ولم اشارك في اعداد تحقيق صحفي كهذا ومن ثم فقد تم ارسال المبلغ لي بطريق الخطأ" . وارتجت المؤسسة كلها ولكن في صمت بين الكبار فالتحقيق في المطبعة

وعليه اسمي، وأمر الصرف صدر من رئيس القسم وبتوقيعه والمدير العام كان يتصل بي يوميا في الايام التي قيل فيها انني مسافر في مرسي مطروح والصحفي صرف المكافأة وبدل المبيت لعشرة ايام وكذلك المصور. لكن المؤسسة كانت -إن ارادت- تمتلك عبقرية مداواه مثل هذه الاخطاء وكأنها لم تكن. والغريب أن احدا لم يفاتحني في الأمر.. وابلغت الأستاذ خالد فقال هم أرادوا اصطيادك فاصطدتهم. والمثير للدهشة أنهم أنتظروا يومين أو تلاتة ليروا ما إذا كنت سأثير الموضوع أو أن الأستاذ خالد سيثيره أم لا.. فلما تأكدوا من صمتنا.. نشر التحقيق الصحفي وكل ما هناك أنهم رفعوا اسمي من التحقيق المنشور. ولأن لكل تلصص تلصص مضاد فقد وصل الأمر لعبد الناصر ليرتد تأنيبا بأن المؤسسة سايبة.

ونأتي إلي واقعة أخري.. فصباح ذات يوم (وكانت المنافسة والمناكفة مستمده بين الأخبار والاهرام) اتصل الرئيس بالأستاذ خالد ليسأل -وبلا أي مناسبة- عن الاحوال المالية للمؤسسة ورد الأستاذ خالد "كويسة" وأجاب عبد الناصر بلهجة فيها تهكم "لكن أنا سامع أنها مش كويسة " (وهنا بدأت شكوك أن هيكل قد اخترق الجهاز الاداري الاعلي في أخبار اليوم ليرتب حسابات توحي بالخسائر) واتصل الأستاذ خالد طالبا تقريرا سريعا عن الاوضاع المالية للمؤسسة وكأن مسئولي الحسابات كانوا يعرفون ومستعدون فقد احضروا التقرير في دقائق.. فتحت المظروف وفوجئت بخسائر صاعقة تهدم كامل تجربة خالد محيي الدين بالمؤسسة. ودخلت علي

الأستاذ خالد مستفزا بل وثائرا وقلت يا أستاذ خالد أنت مش مسئول، فأنت لا تتدخل في الإدارة ولا الحسابات وإذا خسرت المؤسسة فهم مسئولون ويجب أن يستقيلوا. وكلفني بأن اتصل بالدكتور قاسم فرحات المدير العام كي يدعو مجلس المديرين إلي اجتماع فوري. فحضروا مهرولين.. كان الأستاذ خالد هادئا هدوءا اغاظني حتي اكتمل عقد المديرين وفجأة فجر القنبلة.. المؤسسة خاسرة وأنتم المسئولون وعليكم أن تحددوا المسئول وتقرروا كيف يعاقب.. أنتقلت كره اللهب الصاعقة إليهم.. وتلاقت نظرات تعرف بعضها البعض وتعرف من دبر؟ ومن نفذ؟ ..ولكن كبيرهم د. قاسم صاحب الخبرة الاكبر والدهاء الذي لا يقاوم قال "خسائر ازاي يا افندم وامسك بالورق وكأنه يراه لأول مرة وبخبرة لا تباري استخرج المبالغ المخبأة "شوف يا أفندم فيه مبالغ من حصيلة المبيعات تم تحصيلها لكن لم ترصد بعد عند الحسابات وفيه مبالغ من حصيلة الاعلانات يجري الآن تحصيلها وتنتظر تجمعها لترصد مجمعه، واشتراكات يجري تجميعها في قسم الاشتراكات، وثمن طباعة للغير لم يتم تحصيله.. ثم صاح بحماس إزاي يا جماعة كل المبالغ دي مدخلتش الحسابات؟ وتكشفت ابعاد اللعبة، وهي التباطؤ لشهرين أو ثلاثة في تحصيل المستحقات فتتبدي المؤسسة خاسرة ويطير الخبر للرئيس. وبسرعة شديدة اعدت ورقة حسابات جديدة صحيحة ومتخمة بالارباح وارسلت لعبد الناصر ليتأكد من كذب ما وصله من معلومات.

وكانت ثمة اختراقات داخلية فتعليمات عبد الناصر للاستاذ خالد أن يشعر مصطفي وعلي أمين بحالة من الهدوء والاسترخاء تجاههما فقد كان يستعد لهما بقضية التجسس الشهيرة واستطيع أن اؤكد أنه برغم الدفاعات والمصدات التي حاولنا ترتيبها إلا أنهما كانا يمتلكان نفوذا طاغيا في مؤسسة بنياها بأنفسهما واختارا محرريها بنفسيهما . . وبرغم وجود شبكة من خطوط يقظة في كل قسم وكل ادارة وكل مطبوع . . إلا أن علي أمين نجح في خداع الجميع عبر مسلسل تابع نشره في مجلة "هي" (وكان يرأس تحريرها دون رقابة من أحد لاعتقادنا أنها مجلة غير سياسية وغير مهمة) .

وكان المسلسل بعنوان "مصنع الشموع" وبعد فترة وصل مظروف من مكتب الرئيس به حلقات القصة وخطوط حمراء تحت اسطر معينة وكانت محاولة فك رموز بسيطة وربط الاسطر الحمراء مع بعضها كافية تماما لكشف المقصود والحكاية ببساطه عن شقيقين (علي ومصطفي أمين) أحزنهما أن القرية مظلمة وبلا أي نور في المساء فقررا انشاء مصنع للشموع (أخبار اليوم) لكن العمدة المستبد (عبد الناصر) يرفض أن تضاء القرية، فأبعد الشقيقين عن السلطة الحقيقية في المصنع وأتي مكأنهما بشيخ الخفر (خالد محيي الدين) ليدير المصنع، وأتي شيخ الخفر ومعه عدد من الاجلاف الذين بلا خبرة (نحن) ويوشك المصنع أن يدمر ويعود الظلام للقرية من جديد. ولم نفعل شيئا فالتعليمات هي لا تصادم معهما. حتي تم القبض عليهما، واصبحت ساحة أخبار اليوم

مفتوحة أمام الأستاذ هيكل الذي كان لا يستطيع مواجهتهما مهنيا.

ثم تجمعت سحب كثيرة وتراكمت لتوحي بقرب هطول المطر.. فالاشاعات تملأ المؤسسة أن المشير عامر غاضب من سيطرة اليسار علي أخبار اليوم.. وإن كان المشير علي علاقة طيبة بالأستاذ خالد ولو شكليا ثم اثيرت مسألة اقتصادية ففي جلسة الامانة العامة للاتحاد الاشتراكي تحدث الرئيس مطولا عن تسابق الصحف في زيادة عدد الصفحات بحثا عن توزيع أزيد، وخاصة في الاعداد الاسبوعية السبت (أخبار اليوم) - الخميس (الجمهورية) الجمعة (الأهرام) ووجه الرئيس حديثه للاستاذ خالد بصفته أمين الصحافة بتقليل الصفحات توفيرا للنقد الأجنبي الذي ينفق لاستيراد ورق الصحف.

ووجه الأستاذ خالد الدعوة لأمانة الصحافة التي تضم كل رؤساء مجالس الإدارة ومنهم طبعا الأستاذ هيكل..وعرض عليهم الأمر وتقرر بالاجماع ألا يزيد العدد الاسبوعي عن ثمانية صفحات، وقال الأستاذ خالد سأبدأ انا من السبت القادم وبالفعل دار صراع مرير في ديسك أخبار اليوم لاستبعاد ابواب بأكملها وتحقيقات وموضوعات ومقالات كثيرة وحتي مقال الأستاذ خالد جري اختصار مساحته.. وكان الضغط يتم تحت مقولة هذه تعليمات الرئيس وسوف تسري علي الجميع.. وصدرت أخباراليوم في ثماني صفحات وبعدها الجمهورية يوم الخميس في ثماني صفحات ثم كان عدد اهرام الجمعة في ١٦ صفحة وصعق الجميع.. وجرت همسات وتساؤلات

بين الجميع وشعر الأستاذ خالد بإهانة شديدة لوضعه في مؤسسة أخباراليوم ووضعه كأمين للصحافة في الاتحاد الاشتراكي.. واسرع خالد الغاضب ليكلم عبد الناصر (وكان الكمين معدا) فرد عبد الناصر ببرود متحدثا بعيدا عن الموضوع وقائلا أن حكيم (عبد الحكيم عامر) غاضب من سيطرة اليسار علي أخبار اليوم، ثم اضاف "وأنا بصراحة زهقت من المشاكسات مع هيكل" فرد الأستاذ خالد "إذن استقيل" أنتهز عبد الناصر الفرصة وقال له "أوكي" واتفقا أن يرسل الأستاذ خالد استقالته مكتوبة ومغلقه وأن يرسلها "مع الواد بتاعه" (أي أنا) ليسلمها في يد عبد الناصر شخصيا.. فقد كان من الواضح أنها مليئة بعتاب شخصي علي كل ما كان من تصرفات معه. كما كان الاتفاق أن يستمر الأستاذ خالد في كتابة مقاله الاسبوعي حفاظا علي كرامته وأن يسافر مع بوسي (سميحة ابنة الأستاذ خالد) إلي لندن لمحاولة علاجها وأن اقوم أنا بمقابلة الأستاذ هيكل لتسليمه مفتاح خزينة رئيس مجلس الإدارة وما تراكم من اوراق "للعلم".

***

وبإحدي سيارات أخباراليوم توجهت إلي بيت الرئيس.. كان اسمي مفتاحا فهم منتظرون، تنحي الحاجز واقتادني شخص عبر حديقة متواضعة ويمكن وصفها بأنها شبه معتني بها، والرجل توقف أمام أحد الابواب وأشار بيده وتراجع سريعا.. وبخطوات شديدة الحذر أطل رأسي إلي داخل الحجرة لأجد شخصا مهيبا واقفا وأمامه

علي المكتب قفص من حبات مشمش يبدو من حجمها أنها ليست مصرية والرجل وبعين فاحصة ويد متأنية يمسك بكل ثمرة يقلبها من كل جانب وكأنه يفحص قطعة من الجواهر الثمينة.. أنا واقف في صمت وهو منهمك في مهمته ثم التفت إلي فجأة فنطقت باسمي ترك المشمش وسرت خلفه.. درجات سلالم محدودة ثم ادخلني إلي غرفة بها شخص أذناه مميزتان جدا (محمود فهيم) السكرتير الشخصي للرئيس.. تسلم المظروف أحكم ازرار الجاكت.. دق الباب المقابل بحنان وفتح وأنا خلفه وسلم المظروف لعبد الناصر الذي تأملني للحظة. وانسحب الرجل ذو الاذنين قال وكأنه لا يراني الرسالة في يد سيادة الرئيس وأغلق بابه كي أجد شخصا صامتا أيضا ليصحبني للخارج. عدت إلي بيتي القريب جدا من بيت عبد الناصر معتقدا أن الأمر سيحتاج بعض الوقت ولكن القرار صدر بعدها بساعتين.. استقالة خالد محيي الدين وتولي هيكل رئاسة مجلس ادارة أخبار اليوم بالإضافة إلي رئاسة مجلس ادارة الاهرام في واحدة من نوادر الصحافة الناصرية. وكانت الساعات التي قضاها الأستاذ خالد صباح اليوم التالي مؤلمة ومريرة فالبكاء يعلو بحرارة من البعض وقد ودعه كثيرون بحرارة غير مفتعلة. وكان إصرار الأستاذ خالد أن يغادر المؤسسة قبل أن يحضر الأستاذ هيكل.. وكان القرار كما قلت أن استقبله أنا. وبدأت ألاحظ بوادر الشماته والنفاق وتعالي احيانا تعبير "الهنود الحمر" ورأيت لأول مرة في حياتي تضاريسا من الاخلاقيات بعضها مفعم بالاحترام والاخر مفعم بالشماتة وتملق

القادم. وحتي إلمسكين الكبير السن والذي كان محررا في القسم القضائي، وكان مسكينا حقا واعتاد أن يدق بابي ليطلب طلبات متواضعة جدا وأحلها له فورا وكثيرا ما كان يحضر ابنته معه إلي المؤسسة ربما لأنه لا أحد يرعاها في المنزل و كنت اشفق عليها واشتري لها اكواما من الشوكولاته.. دخلت صالة التحرير لأجده واقفا علي كرسي وهو يخطب بصوت مرتفع (ربما لينفي عن نفسه "تهمة" نفاقنا السابق) يهاجمنا بحماس عالي الصوت ويتهمنا بأننا عملاء الشيطان والمحررون يتابعونه.. البعض شامتا فيه والبعض شامتا فينا.. وعم فهمي عبد اللطيف مايسترو الديسك المركزي الذي تقلبت عليه عهود وهو مستمر في قيادة صالة التحرير كربان ماهر لحني اقف مستندا علي باب الصالة مبتسما في دهشة فصاح في الرجل "وطي صوتك يا منافق" ثم "وطي نفاقك يا حمار" وأنتبه الواقفون فلفتوا نظره وعندما رآني أنهار ويا للدهشة باكيا وقال اعمل ايه الحياة مريرة وعايزة كده". ولم أعره اهتماما ومشيت. وقبل أن امضي قدما في الكتابة أود أن اسجل أن زملائنا في المؤسسة أي مجموعة "الهنود الحمر" كانوا علي قدر عال من الاحترام والتماسك ولم يخضعوا لأي استفزاز ولا تبدت منهم علامات ضعف .. وأود أن اسجل أيضا أنني تحدثت عن بعض العاملين في أخبار اليوم بملاحظات قد تبدو قاسية لكنني أريد أن أقول أن الكثيرين جدا منهم سواء في الإدارة أو في التحرير كانوا علي قدر كبير من الكفاءة والاحترام لانفسهم وللغير وهم والمؤسسة ككل تبقي راسخة وحتي الآن في

قلبي ووجداني كجزء عزيز لا انساه وكنت ولم أزل ممتنا بالأساس لاساتذتي الصحفيين الذين تعلمت علي يديهم الصحافة الحقيقية ولزملائي العمال الذين وقفوا معنا كعيون ساهرة ضد محاولات تشويه صورة رجل أحبوه كثير جدا.. خالد محيي الدين.

إنه دين من ذلك النوع الذي لا يستطيع الإنسان الوفاء به ولا يستطيع نسيأنه.. وأنا ما استطعت ولا استطيع ولن استطيع نسيأنه.

***

وفي اليوم التالي أتي الأستاذ هيكل، عبر الممر متباهيا والسيجار الشهير بين اصابعه، صافحني ومنحني ابتسامة مترفعه وأحسست به وهو يتأملني بدهشة وكأنه يتساءل من هذا الذي تحدثوا عنه كثيرا.. وربما سأل أيضا كم يساوي هذا الشاب؟ وبكم يمكن أن أشتريه؟ اصطحبته إلي المكتب. في مكان الأستاذ خالد جلس.. وساعتها احسست بحجم الألم الذي يغمر كل ذرة في كياني ..وامامه جلست. طلب أن اختار له سكرتيرة واشترط ألا تكون صغيرة ولا جميلة.. وابتسم قائلا بس مش وحشة قوي.. وفجأة سألني مرتبك كام؟ قلت خمسون جنيها (كان مرتبي قد زاد) ابدي اشمئزازا من ضآلة المرتب وقال بلهجة لم افهم إذا كانت شماتة أو اغراء "واضح إن خالد مابيعرفش يقدر مساعديه". ولم أعلق ثم سألني خالد ساب المقال؟ فقلت نعم، فين؟ في المطبعة- راجعته؟ لم أتعود أن اراجع ما يكتبه الأستاذ خالد. أنت اللي بتكتب المقال؟ لا -

مين بيكتبه؟ هو وبيبتعه المطبعة بخطه. واصبح واضحا أن الاجابات لم تعجبه. فقال اتفضل- سألت علي فين؟ واجاب في نفس أودتك. وبهت وبعدها بدقائق دق التليفون وكان هو وبلهجة آمرة انزل المطبعة اختصر مقال خالد. كنت متوترا وربما اكثرمن اللازم فقلت. الأستاذ خالد بيكتب مقالة بالمساحة المطلوبة بالضبط. فقال "معلش فيه اعلانات زيادة انزل اختصره". ولمع في ذهني خاطر خبيث هو يريد أن يقول أن مدير مكتبه ما أن تخلص منه حتي اختصر بنفسه مقالاته.. هذا الخاطر الخبيث جعلني جافا ومتوترا. ومرة أخري دعاني الأستاذ هيكل.. لعله الخاطر الخبيث ولعله رغبة في أن يعرف من أنا وما مدي علاقتي بالأستاذ خالد. وقال بهدوء "أليس الافضل أن تختصره بنفسك بدلا من أن يختصره غيرك؟ فقلت ببرود مثلج الافضل إلا يختصر اصلا. فقال سأضطر إلي تكليف شخص آخر وأنت المسئول. فأجبت بالنسبة لي الافضل ألا يختصر اصلا. وفي غرفتي التي لم تعد مريحة بالنسبة لي تأملت الحوار.. ونحن كنا في أول الاسبوع والسبت هو موعد النشر والمقال لم يجمع بعد بحيث يعرف الأستاذ هيكل هل ثمة مساحة كافية أم لا.. وقلت لنفسي الرجل يختبرك. ويختبر مدي استعدادك للمشاركة في شيء ضد الأستاذ خالد. وفي السبت التالي لم ينشر المقال أصلا.

كل هذا وأنا لم أزل في ذات الغرفة الانيقة والتي اصبحت بالنسبة لي قريبة من غرفة التأديب الانفرادي في السجن. فلا أحد يتجاسر بالحضور إلي.. وأنا لا ارحب بأحد حتي لا ترتفع همسه

تلتقطها أذن تترصد. البريد يدخل من الباب الآخر والداخلون والخارجون يستخدمون الباب الآخر.. وشعرت بارتياح حقيقي وحمدت الله أنني سقطت في الامتحان. وبدأت استعد ففي أي لحظة سأطرد من هذه الغرفة واخذت استخدم الوقت الخالي في المذاكرة.

وفي اليوم التالي دخل محمد سيد أحمد قائلا "فيه موعد مع الأستاذ هيكل. وأخذ يقطع الغرفة ذهابا وعودة، سألت أنت ليه قلق؟ قال أنا افكر بعمق لأن هذه لحظات مصيرية، أما أنا فكنت استعجل في خاطري هذه اللحظة المصيرية لأتخلص من عبء المواجهات مع الأستاذ هيكل.

ولست أدري لماذا قرر الأستاذ هيكل أن يلتقينا معا. ربما لكي يريني كيف سيتعامل مع المستعدين للتفاهم. جلس هيكل جلسة تكتسي بالترفع لشخص يتحكم في مصائر البشر.. وجه كلامه لمحمد.. ايه يا محمد ناوي علي ايه؟ وكان محمد قد استعد لما اسماها اللحظة المصيرية فبدأ يتحدث عن مشروع لبنك معلومات تتجمع فيه بيانات وأرقام ومعلومات وخرائط في جريدة الاهرام لتكون تحت يدي الباحثين هناك، كان هيكل يتصاعد منه دخان السيجار ويخيل إلي أنه حتي هذا الدخان يستعلي إلي أعلي علينا. ولم يجب هيكل علي اقتراح محمد سيد أحمد واكتفي بايماءة.. اكتفي بها وفجأة باغتني الأستاذ هيكل وأنت ناوي علي إيه؟ فقلت أنا افضل ارجع التحرير فقال يعني مش عايز تشتغل معايا وبأدب

مفتعل بدأت أقول أن علاقتي بالأستاذ خالد علاقة خاصة جدا وانني في واقع الأمر لا أصلح ولا أحب أن أكون سكرتيرا ولا مدير مكتب لأحد.. فهز رأسه. ولم يقل شيئا.

وفي صباح اليوم التالي وفيما أنتظر الاسانسير لحق بي معاون المبني. كان مسكينا ومرتبكا وربما حزينا، وقال في تردد معلش سيادتك مكتبك في الرابع. وفي الرابع كانت عدة غرف خشبية متهالكة ومتواضعة جدا فوق سطح المبني الملحق ومكتب صاج ايديال وكرسي متهالك التقطوه من مخزن المخلفات.. ولست أكذب إذ أؤكد أنني لم اشعر بأي حزن، فقط دهشت من هذا الاسلوب وهذه الاخلاقيات.. وفي الغرف الاخري تجمع الرفاق (الهنود الحمر) في أنتظار ما يقرره الأستاذ هيكل.

***

وفي المطار ذهبت لأنتظر الأستاذ خالد عائدا من لندن.. ووجدت هناك عبد المجيد نعمان - أسعد حليم- الأمير العطار واعتبر البعض هذا الاستقبال في المطار نوعا من التحدي لهيكل لكن الأمور كانت قد تجاوزت هذه المسائل الصغيرة.

وأتي اليوم الموعود سريعا جدا وفيما كنت اعبر باب المؤسسة فاجأني رجل الاستعلامات الذي كان ينتفض عندما يراني ليحيي ويستدعي الاسانسير فورا، فاجأني بأن صاح يا استاذ.. عبد العزيز بك عبد العليم عايزك وذهبت إلي غرفة عبد العزيز بك.. وتبدي أن الرجل حزين أو هكذا تصورت واقسم تلاثة بالله العظيم أنه زعلان

وأنه لن ينسي أنني تعاملت مع الجميع بأدب واحترام وأكد أنه عبد المأمور (وكنت اعرف ذلك) وأنه اراد أن يسلم الخطاب بنفسه احتراما، أما الآخرون فسوف يستلمون خطاباتهم من شئون العاملين، فتحت المظروف الذي كان مفتوحا وأسرعت عيناي وسلمت علي الرجل الذي لم يفكر ربما خوفا من ملاحظات الآخرين أن يطلب مني الجلوس ولو مجاملة..

خرجت من المؤسسة وتوقفت في الطريق لأتمعن النص "الأستاذ رفعت السعيد- حيث تقرر نقلكم للعمل بجهة اخري نرجوكم عدم الحضور للمؤسسة. محمد حسنين هيكل" (الجميع تلقي ذات النص ما عدا البعض الذي رتب أموره مع الأستاذ هيكل أو مع لطفي الخولي الذي كان فاعلا اصليا في ذلك كله كما اتضح فيما بعد، وبعضهم الاخر طرد ثم وجد سبيلا للعودة مثل عادل حسين الذي ألح موسي صبري علي ابقائه ارضاء لأخيه أحمد حسين وكذلك الأمير العطار. أما أنا فلم أحاول ولم اكن لا أريد ولا استطيع، تمشيت إلي ميدان سليمان باشا.. جلست في جروبي وطلبت كابتشينو. احاول أن استعيد مذاق مشاعري آنذاك لم أكن غاضبا فقد شبعت مما كان من سوء معاملة.. ولكنني كنت مضطربا حول "ماذا بعد؟" كانت ليلي في المستشفي تستعد لاستقبال ابننا خالد.. ماذا بعد؟ والمجهول لم يزل مجهولا.. ولكن طيف اطمئنان ناوشني فعلي الاقل هناك بيت المنصورة والأب والأم سيرحبون بنا.

رشفة واثنان من الكابتشينو وبدأ رحيق من الارتياح.. سئمت هذه المماحكات والألاعيب وآن لي أن ابدأ من جديد وأن أنهي دراستي، وفي واقعة نادرة وليست متوقعة دخل الأستاذ خالد محيي الدين ليشتري شيئا من جروبي كنت اسأل نفسي كيف سأبلغه الخبر فأتي هو بنفسه رآني وسأل بتعمل ايه هنا؟ بأشرب كابتشينو قلتها ببساطه لكي لا اشعره بأية هموم تتعلق بي فقد يشعر أنني ضحية لصراعه مع هيكل..ولكي لا افتح موضوعات لا أعرف كيف افتحها اعطيته الخطاب.. شعرت بحالة من الحزن تخيم علي وجه الأستاذ خالد الذي اعتاد أن يكون مبتسما ومشرقا.. وقال كلمات لن انساها طوال حياتي "لا تهتم ولا تقلق فلو اقتضي الأمر سأقتسم معك معاشي. حاولت أن أهون عليه وقلت مفيش مشكلة في الفلوس فالوالد يمكنه أن يرسل ما احتاج إليه.. أنا فقط افكر كيف أبدأ من جديد.. لم يتركني، صمم أن يأخذني معه إلي بيته بعد أن اشتري ما أراد. وفي غرفة مكتبه أدار رقما من الذاكرة، ومن الحديث عرفت أن عبد الناصر علي الطرف الآخر. وأن كلمات عبد الناصر غير مرضية وباردة وربما أكثر.. لم ينقل لي الأستاذ خالد ما قاله الرئيس كله.. فقط نقل لي عبارة صعبة هي "هو سي رفعت بتاعك نزل من بطن امه صحفي. كلم سامي بشوف له شغلأنه تانية" وأسرع الأستاذ خالد ليتصل بسامي شرف ورد سامي علي الفور يختار واحدة من تلات شغلانات.. يا ملحق اعلامي بأي سفارة، يا صحفي في أ.ش.أ. (وكالة انباء الشرق الأوسط) أو يعمل في

المؤسسة المصرية للكتاب. وقلت يستحيل يعطوني وظيفة ملحق إعلامي . واخترت وكالة أنباء الشرق الأوسط. وبعد اسبوع جاء خطاب تعييني في مؤسسة الكتاب، وضحك الأستاذ خالد قائلا كانوا عايزين يعرفوا أنت عايز ايه علشان يعطوك العكس" وبعد فترة صمت.. قال بكرة الصبح نروح مع بعض. واعترضت بشدة لكنه قال أن المدير العام عبد الواحد الوكيل صديقه وضابط سابق في الجيش. وذهبت معه إلي مكتب عبد الواحد الوكيل لنجد سكرتيرة متعجرفة وهي لم تسمع اسم خالد محيي الدين من قبل قال لها ممكن اقابل عبد الواحد بك. سألته بترفع فيه ميعاد؟ فأجاب لا. هو يعرفك؟ فقال ايوه. فدخلت متأففه إلي الرجل الذي أتي متعجلا وأدي للاستاذ خالد التحية العسكرية واتفضل يا افندم وتعبيرا عن صداقة حميمة أنهي اجراءات تعييني في لحظات مستندا بالطبع إلي قرارآت من الرئاسة. وبعدها استقبلتني رئيسة المؤسسة الدكتورة الرائعة سهير القلماوي.. كانت حانية ورقيقة وسألت بهدوء عن سر التعيين القادم من الرئاسة وعن سبب مصاحبة الأستاذ خالد لي.. ألحت في تحفظ شديد إلي ما كان، وتفهمت الموضوع بذكاء وسألت ماذا يريحك؟ قلت أنا أذاكر لأكمل دراستي.. وقلت أنا أحاول أن اكتب واشتغل بجدية في كتاب عنوانه "الأساس الاجتماعي للثورة العرابية" قالت المهم أنك تذاكر وتكتب وسوف أعينك في وظيفة باحث ولن يطلب منك الحضور إلا لتقبض مرتبك بشرط أن توعدني باستكمال دراستك ووعدتها. وبعدها اتفقت مع

الأستاذ خالد علي مواعيد نلتقي فيها أمام بيته لنذهب معا إلي نادي الجزيرة ونقرأ معا في كتب يختارها هو.

لكن الأمور لم تمض بسهولة فقد سافر هيكل مباشرة قبل تسليمنا خطابات الفصل إلي الهند.. وفي هذه الاثناء كان موعد الاجتماع الدوري لمجموعة التنظيم الطليعي بمؤسسة الأخبار وهي تابعة لفدع التنظيم الذي كان يرأسه الأستاذ خالد.. وكانت تضم (الامير العطار- حامد زيدان- اسماعيل يونس- جمال بدوي- سعيد حبيب- وأنا) وأشهر الجميع غضبهم من عملية الفصل. أنا كنت محرجا ولم اشارك في الحوار نهائيا. واقترح حامد زيدان أن نرسل برقية احتجاج إلي عبد الناصر. وتمت صياغة برقية عاصفة، وصمم حامد زيدان أن نذهب بها معا وأن نرسلها معا من مكتب التلغراف. تمشينا من الدقي حيث بيت جمال بدوي إلي الزمالك ومن مكتب التلغراف ارسلت البرقية بمعرفتنا جميعا. وفيما نغادر همس حامد لو لم نرسلها مع بعضنا لما ارسلت اصلا. وازداد غضب هيكل فور عودته فلا المؤسسة اعتادت علي ذلك ولا النظام اعتاد علي أن يراسله اعضاء التنظيم الطليعي بالتغراف.. ووطبعا علق الاتهام في عنقي.

وتمضي الأمور لتتعقد أكثر فأكثر وظهر يوم جمعة زارني الأستاذ خالد في بيتي دون موعد.. كان وجهه غاضبا وصارما وما أن جلس وفيما اطلب من ليلي شايا قال بلاش شاي ثم سأل ماذا حدث بينك وبين هكيل عندما تقابلتما في مكتبه؟ وكنت قد قررت محرجا من أن

اتظاهر بموقف متعاطف معه، من ان احكي له ماكان مع الأستاذ هيكل. حتي لا يتصور أنني ضحية لموقفي معه. ومادام قد سأل بهذه الحدة فقد حكيت له بالتفصيل وبدقة. فقال بالانجليزية تذكر جيد. وقلت أنا متذكر جيدا فأعادها مرة ثانية وثالثة وأن اكرر أنا متذكر جيدا. ومحمد سيد أحمد كان موجودا واسأله. وهنا قال الأستاذ خالد "هيكل قال لعبد الناصر انك توسلت إليه كي تعمل معه لكنه رفض كي لا يشعر خالد بالحرج من تخلي اقرب الناس إليه عنه، واقترحت أن يشرب شايا.. فقبل وقد انفرجت اساريره. ومن التليفون بالخارج كلمت محمد سيد احمد وقلت الأستاذ خالد عندي وعايزك ضروري.

وفيما تباطأت ليلي في اعداد الشاي وبعض البسكويت وتدخلت لتجلس قليلا مرحبة بالأستاذ خالد. أما أنا فكنت اتظاهر بالهدوء لكنني كنت اكتم غضبا شديدا وخوفا شديدا جدا من أن يغير محمد ما سمعه اثناء المقابلة..ومرة أخري حلق في خوفي ركام من سحاب يقول "الافيال تتصارع والعشب يتكسر" وقلت لنفسي إلي متي سأظل اتكسر محبة في هذا الرجل الذي يستحق أن احبه فعلا.. وأخيرا وصل محمد سيد أحمد..وانسحبت ليلي لتترك لنا استكمال القصة قلت لمحمد"من فضلك احكي ما حدث خلال مقابلتنا معا للاستاذ هيكل" حكي محمد بأمانة ودقة شديدة وبتفاصيل تجاوزتها أنا حتي لا أتبدي أنني أدعي بطولة.. وعاد اللون الوردي البشوش إليوجه الأستاذ خالد.. الذي سأل محمد مستعد تشهد بكده؟ فقال طبعا فحكي له الأستاذ خالد ما قاله

هيكل . .وصمم محمد سيد احمد علي روايته لما حدث. وغادر محمد . . وحاول الأستاذ خالد أن يفسر موقفه الذي أتي به . . وجدت نفسي واقفا وأنا اقول من فضلك يا استاذ خالد نقفل الموضوع لكن أنا عايز اقول لك كلمة واحدة "أنت لم تعرفني بعد" (بعدها بفترة طويلة قال الأستاذ خالد . كانت كلمتك هذه اشد قسوة من أي كلام) وبعد فترة صمت التقط الأستاذ خالد التليفون وطلب عبد الناصر وحكي له حكايتي وحكاية محمد سيد أحمد . . وأبدي عبد الناصر أنه غير مرتاح لهذه الاحتكاكات وقال أنه مش فاضي لها . وأنه سيطلب للسادات أن يحقق في الأمر . وفيما يغادر الأستاذ خالد أتت ليلي لتودعه فقال لها مبتسما رفعت زعلان مني خليه يصالحني فقالت بعفوية احنا كلنا بنحبك ومحدش ممكن يزعل منك .

وبعد حوالي ساعة من مغادرة الأستاذ خالد . . عاد محمد سيد أحمد ، ، وكان مضطربا جدا . .وصريحا جدا (وكان كذلك دوما) فقال أنه ذهب عقب مغادرتنا إلي لطفي الخولي الذي قال له لا تشهد لأن ذلك سيدمر مستقبلك الصحفي في الاهرام وطلب مني أن اسامحه وأن ابلغ الأستاذ خالد اعتذاره عن الشهادة، وكانت اجابتي أن الشيء الأهم عندي هو شهادته أمام الأستاذ خالد . . ولست بحاجة إلي اية شهادة أخري. ولم يكن هناك تحقيق . . وفيما يبدو أن الرئيس كان يعرف حقيقة حواري مع هيكل (ألم اقل أن للجدران وآذان تسمع الهمسات) .

***

واستأذن القارئ في قفزة واسعة تنقلنا إلي فترة النكسة وكانت هناك دعوة إلي المجلس المصري للسلام لارسال وفد إلي مؤتمر التضامن مع شعب فيتنام في استكهولم وكالعادة كانت الوفود تتخذ من موسكو محطة.. توفيرا للعملة الصعبة.. فالسفر إلي موسكو بطائرات الايروفلوت ثم التجمع في موسكو ثم بطائرة تشارتر ايروفلوت أيضا إلي مكان المؤتمر.. وكان الوفد مكونا من عديد من قادة حركة السلام واختارني الأستاذ خالد معهم ربما مجاملة وربما لأتدرب وسافرنا إلي موسكو وفورا إلي استكهولم وفي الوفد احمد الخواجه (وكان نقيبا للمحامين -وسعيد خيال- وصبري القاضي، والدكتور عباس وهو طبيب كان رغم كبر سنه وشعره الاشيب امينا لمنظمة الشباب في الجيزة) وأنا وعدد اخر لا أذكر اسمائهم وقبل ان اغادر صاحبتني نصائح الأستاذ خالد وتحذيراته.. وبعد المؤتمر غادرنا أحمد الخواجه إلي القاهرة علي نفقته وسعيد خيال الي براغ حيث صديقه الحميم مجدي حسنين سفيراً وعدنا نحن إلي موسكو حيث انطلق الآخرون في حملة شراء محموم مستفيدين من فارق سعر العملة فأحدهم اشتري اكواما من الكريستال وكان رخيصا جدا في محلات "البيريوزكا" وماكينة خياطة وقال لقيت ثمنها بما يساوي 170قرش مقدرتش اسيبها.. وليلة السفر استضافنا د. مراد غالب سفيرنا الممتاز في موسكو في منزله..وامتدت الثرثرة كالمعتاد لتتراكم من موضوع لآخر وفجأة سأل الدكتور عباس ما يتبدي أنه سؤال برئ (قال لي الأستاذ خالد اخطر الاسئلة هي ما يحاول استدراجك ببرائته) لماذا الهزيمة؟ وقال انا اعتقد

أن السبب هو الجيش الذي جري تدليل ضباطه وافتقاده للانضباط والعمل الجاد لكن صبري القاضي الذي كان يستشعر (فيما اعتقد) ان رياح المشير عامر تفرد قلوعها لتدفعها الريح للامام.. انبري الدفاع عن المشير وتمادي ربما ليصل صوته للمشير قائلا المسئول هو المسئول الكبير اللي بيدير البلد ويتخذ قرارات سياسية خاطئة والجيش ينفذ تعليمات ولا يقرر سياسات.. وهنا تمادي د. عباس ربما ليشعل النقاش وتحدث الآخرون في ذات الاتجاه واتجهت الانظار إلي هذا الصامت وسألوني وأنت ما رأيك؟ نطقت بعد أن تجاهلت نصائح الأستاذ خالد وبدأت أنتقد المشير واسلوب قيادته للجيش ووجود شلة فلان وشلة فلان ودفعه فلان وكان معلوما أن شمس بدران قد جمع ضباط دفعته ورشقهم في كثير من المهام المهمة، وقلت الرئيس يتخذ قراره السياسي بناء علي معلومات خاطئة قدمها المشير عن قدرات الجيش واستعداده، خاصة أنه اعطي المشير كل ما طلب من اسلحة ومعدات ودعم وامتيازات.. ثم لم يحاربوا.

إلي هنا وأحسست أن يد الأستاذ خالد تخنقني كي اكتفي. وأحسست أن السفير يتململ فوقفت وقلت كفاية كده ونقوم علشان الناس مسافرة بكرة.

وتنهد السفير في ارتياح. وبعد ظهر اليوم التالي سجل الوفد أو بالدقة المتبقين من الوفد فضيحة مدوية عند اصطفت حقائبهم وصناديقهم وكراتينهم لتملأ مدخل فندق سفياتيسكايا الانيق جدا. ولسوء الحظ كان اربعة مسئولين كبار قد اتوا ليودعوا الوفد

المصري الذي كما قال لي أحدهم "يعود إلي ارض المعركة" ودوت الفضيحة عندما لم تتسع السيارات والتاكسيات التي اصطادوها من الطريق مستخدمين نفوذ بطاقاتهم الحزبية ومندوب السفارة يذوب خجلا وأنا اتواري خلفه.. واخيرا سار رتل سيارات حاملا حمولة ضخمة وأحسست بدهشة وأسي كبار المسئولين الذين سلموا علي بأطراف اصابعهم. وفيما يودعني ممثل السفارة سألني حضرتك معاك وزن كتير.. فقلت حضرتي معي شنطه صغيرة فقط. هم سافروا..وبعدها بساعات غادرت أنا إلي كوبا وكان مندوب السفارة مندهشا حضرتك لم تشتر شيئا؟ قلت سأحضر في زيارة خاصة للشراء. وعندما عدت كان علي سلم الطائرة مرافق من لجنة السلام السوفيتية وقال فور رؤيتي سفيركم يريدك أن تتصل به.

كانت الساعة السادسة صباحا ، فاسترخيت في السيارة لارتاح من رحلة صعبة وفي الفندق كانت موظفة الاستعلامات تلقي عليه محاضرة طويلة لخصها هو في عبارة سفيركم يريدك أن تتصل به فورا. وقلت لنفسي لست مجنونا حتي اتصل بالسفير في السادسة صباحا. لكنه وبعد فترة كان علي التليفون، وقال د. مراد عايزك قلت امتي؟ قال فورا والسيارة في طريقها إليك.. وتنازلت عن الافطار الذي كنت بحاجة إليه.. لأجد د. مراد متوترا في هدوء دبلوماسي مصطنع سألني عن كوبا وعن رحلتي وأنا اجيب بإيجاز قلق.. ماذا يريد هذا الرجل؟ وكالعادة ساورتني هواجس سخيفة هل مات أحد؟.. أم هل؟ واخيرا سألني باحتراف متمكن وأخبار

السفير المصري هناك ايه؟ فقلت انا لم أكد أعرفه قابلته خمس دقائق ولم اتبادل معه أي حديث.. فالكوبيون يقاطعونه لأنه يتاجر بالعملة ويهرب أموال الهاربين من كوبا إليهم في أمريكا عبر الحقائب الدبلوماسية وكانت الحكومة الكوبية تسمح لبعضهم بالهجرة بشرط التنازل عن ممتلكاتهم.. وسألني د. مراد؟ متي قابلته أول مرة؟ ..ودقق في هذا السؤال تدقيقا شديدا ومملا.. فاستدعيت ذاكرتي.. وقلت المؤتمر تأجل اربعة ايام وهمس راؤول كاسترو يومها في اذني كنا في أنتظار الرفيق جيفارا لكنه يبدو أنه لن يستطيع الحضور، وسنبدأ نحن غدا. ويوم البدء اي في اليوم الخامس حضر إلي باب الفندق مندوب من السفارة المصرية في الصباح ومنع من الدخول فالمؤتمر لا يدخله إلا من يحمل بطاقة دعوة والسفارة المصرية ليست مدعوة.. وطلب مقابلتي فخرجت له واصطحبني إلي السفارة وكان السفير يريد أن يكتب تقريرا عن المؤتمر.. ولكنه حتي لا يعرف الاوضاع العامة ليسار أمريكا اللاتينية فكلف سكرتيرا في السفارة لأملي عليه. وعاد ليسأل يعني أول مرة شفت فيها السفير امتي قلت بملل خامس يوم.. فقال مرحا تبقي براءة، وحكي لي القصة ففي ثاني يوم بعد عودة ما تبقي من الوفد المصري إلي القاهرة اتصل بي الرئيس عبد الناصر.. مش عيب يا مراد اتشتم في بيتك "وماتكتبشي لي باللي حصل" فقلت يا ريس انا لاحظت أن الناس متوترة ويمكن كانوا مشددوين شوية. فقال كلهم يشتمونني وأنت لم تدافع عني ولم يدافع عني إلا رفعت

السعيد. ومضي د. مراد، والغريب أن كلهم هاجموا الرئيس ودافعوا عن عامر ولكن كلهم اتهموا كلهم أنهم شتموا الرئيس..وأنت طلعت براءة . وانا غلطان.

ومضي قائلا والرئيس سألني كمان عن حكاية العفش يعني كلهم كانوا شايلين كميات عفش مهولة وكلهم قالوا علي كلهم أنهم كانوا شايلين شنط وكراتين وتلاجات وماكينات خياطه وأنت مندوب السفارة.. طلعك براءة.

***

وتبقي قصة ناصرية اخري وأخيرة.

لست ادري لماذا طلب عبد الناصر خلال افتتاحه لمبني الاهرام الجديد أن يجتمع بمحرري الطليعة. وبالفعل دعينا في صالة اجتماعات في الدور الخامس..

في صدر الاجتماع هيكل.. والرئيس ود. اسماعيل صبري ولطفي الخولي.

ولسبب ما طلب الأستاذ هيكل من د. اسماعيل صبري أن يقدمنا للرئيس، ثم قال عبد الناصر كلمة قصيرة وترك الجلسة لاسماعيل صبري.. وكان أول المتحدثين د. ابراهيم سعد الدين الذي كان آنذاك رئيسا للجهاز المركزي للمحاسبات، وتحدث الدكتور ابراهيم عن ملاحظات بسيطة حول الوضع الاقتصادي وقال أن الضغط علي بعض مؤسسات القطاع العام كي تحقق ارباحا يدفعها إلي الخطأ.. مثلا مصنع الزجاج وجد أن الاكثر ربحية صناعة

زجاجات الكوكاكولا فترك صناعة زجاجات القطرة التي لا تكسب..وهنا قاطعه عبد الناصر .. "الكلام ده أنت صرحت به في حوار مع مجلة المصور. وأنت كرئيس للجهاز المركزي للمحاسبات ليس مسموحا لك أن تدلي باحاديث صحفية علشان كده انا اصدرت النهاردة قرارا بفصلك".

وسقط دش بارد علينا جميعا.. ثم طلب عادل سيف النصر الكلمة.. ولسوء الحظ أنه حاول أن يتبدي صعيديا فبدأ يتكلم بلهجة صعيدية وكانت لهجة متقنه لكن عبد الناصر شخط فيه قائلا "اتكلم عدل أنت ساكن في الزمالك بتكلم هناك صعيدي".. وارتبك الرجل ولم يكمل. وخيم صمت مخيب للآمال علي الجميع لكن عبد الناصر نظر إلي قائلا "أنت كنت باعت شكوي لشعراوي لأن البوليس بيراقب اجتماعاتكم في التنظيم مش كده" وأجبت.. ده صحيح يا أفندم وما أخشاه أن تفهم هذه الاجتماعات فهما خاطئا ويتصور البعض أنها ضد النظام" فقال ما هو لازم تتحمل عبء الشكوك التي تراكمت في الماضي. وأنا عارف أن دي اجتماعات مشروعة (كانت اجتماعات مجموعة التنظيم الطليعي) وأنت لازم تعمل زي سان بيتر وتحمل صليبك علي ظهرك وتحتمل " وهززت رأسي ولم أرد. وبعدها صمت الجميع فعبد الناصر اشبعنا بما لم نتوقع..وحتي الآن لم اعرف لماذا كانت هذه الدعوة وهذا الهجوم؟.. لكنها كانت.

***

وأخيرا وفي اعقاب النكسة بدأ عبد الناصر في محاورات استشار فيها خالد محيي الدين ولأن بيتي كان قريبا جدا من بيت عبد الناصر فقد كان الأستاذ خالد يأتي إلي بيتي ليضمن الوصول في الموعد وطبعا يتحدث ماذا سيقول لعبد الناصر وتحدثت مع الأستاذ خالد عن أهمية أنتهاج سياسة ديمقراطية فعلا واتاحة مساحة لبعض ولو قليل من حرية الرأي. وكان رد عبد الناصر وفق رواية الأستاذ خالد كلامك صح لكن الديمقراطية دي ممكن تعطل الشغل وبرضه أحسن حاجة أن تأتيك فكرة وأنت في السرير فتقوم وتنفذها.

وتكررت المقابلات وتكرر حضور الأستاذ خالد وتكرر بتنويعات مختلفة الحديث عن الديمقراطية حتي زهق عبد الناصر وقال "هو الواد بتاعك معندوش غير حكاية الديمقراطية دي" وتوقفت المقابلات وبعدها صدر بيان 30مارس.

***

وقبل أن اختتم حديثي عن مقارباتي مع الرئيس عبد الناصر أود أن اشير إلي أنني لم اكتب ولم احاول أن اكتب تاريخ مرحلة.. ولا تاريخ عبد الناصر ولا تقييم عصره فقط اردت أن اتحدث عما كان يتلامس مع الرئيس من وقائع ومعي شخصياً..

أما تقييمي لعبد الناصر فربما يكون موجودا بشكل اكثر تفصيلا في كتاب لي عنوانه "تأملات في الناصرية" وقد نشر في عدة طبعات باسم "محمد فريد شهدي" كمؤلف ثم باسمي في طبعة

ثانية ثم طبعة ثالثة ورابعة بإسمي . الأولي والثانية عن دار الطليعة (بيروت) والثالثة (مدبولي) والرابعة (المدي -دمشق) وربما أيضا أتي بعض منها في كتاب آخر لي هو "الجريمة- وثائق عملية اغتيال شهدي عطية".

أما إذا أراد البعض أن يزداد الحاحا في التعرف علي رأيي في عبد الناصر فأنني وبرغم أنني امضيت في عهده 11عاما في السجن وبعضها كانت فترات شديدة الصعوبة إلا أنني لا أجد افضل من تقييم صاغه شاعر العربية العظيم محمد المهدي الجواهري الذي رثي عبد الناصر فور وفاته قائلا:

اكبرت يومك أن يكون رثاء
فالخالدون عهدتهم احياء
لا يعصم المجد الرجال وإنما
كان العظيم المجد والاخطاء

مع السادات

وإذا كان الحديث عن عبد الناصر مليئا بالتعقيد والحيرة بين نعم ولا، فإن مجرد الاقتراب من الرئيس السادات يمنحك إرباكا وإرتباكا. وإذا كانت حدود عبد الناصر معلومة وكلماته قاطعه فإنها مع السادات تتبدي متماوجه في أكثر الاحيان وعباراته تفهم علي أكثر من وجه.

وقد كانت مقاربتي مع عبد الناصر قد أتت عن بعد.. فقط أسمع أن الرئيس فعل أو قال أو أمر أو رفض.. لكنني عشت مع الرئيس السادات مقاربات مباشرة وحوارات واحتكاكات شخصية وفيها مناكفات من جانبي وأخذ وعطاء من جانبه.

وإذا كان عبد الناصر يأتي عنيفا متجهما وشامخا فإن السادات كان متباسطا حتي في غضبه أو بالتحديد إدعاء غضبه. وحتي

أوامره قد تأتي عبر ضحكة صارخة أو نكتة مثيرة للدهشة.. وهو في ذلك كله يمسك بحزم بزمام الأمور محل المقاربة.

السادات تركيبة يصعب فهمها، ويصعب جدا أن تمسك بتقلباته التي كثيرا ما تكتشف فيما بعد أنها ليست تقلبا ناجما عن تردد أو تغيير في الموقف وإنما هي مبرمجه وخطواتها معدة مسبقا واحدة إثر الإخري.

أنها عقلية الفلاح المصري التي تراكمت فيها وبها وعبر قرون عديدة مساحات مغمورة بالدهاء والبساطة الممتزجة بالمكر الخبيئ الذي تخفيه ابتسامات يصعب جدا إيجاد مفردات لغوية لوصفها.

وهو عندما يتعامل كرئيس يتبدي كعمدة يحكم قبضته علي القرية التي هي مصر وهو يتعمد هذا الايحاء.. ألم يسمي نفسه اكثر من مرة بأنه "رب العائلة"؟ والعمدة آمر وناه وماكر وصديق يتدفق حنانا وقسوة وهيمنة في آن واحد.. وفي نهاية التصادمات والخلافات والعقوبات المتعجلة تكتشف وإن متأخرا أنه كان صافي القلب، وأنت لا تمتلك هذا القدر من التعرف علي السادات والمعرفة به وبأساليبه إلا بالاحتكاك العملي. أنها صفات وممارسات لن تجد لها تفسيراً في أي كتاب وإنما يخيل إليك أنه نموذج تكون عبر مئات السنين وتراكمت في عمقه خبرة وحكمة ودهاء وبساطة مستمده من هذا الدهاء، ولا تدرك أبدا هذا الأبعاد إلي بعد تعاملات واحتكاكات عملية.. وحتي بعد ذلك تكتشف أنك قد إطلعت في

بئره لتري مجدداً صوره لا تكشف لك ولا تكتشف أنت عبرها إلا خيال لا تعرف كيف تمسك بأوصافه.

وبعد كل هذه الأسطر التي حاولت بها أن افسر مكنون السادات..

أعتذر مؤكدا هي مجرد كلمات فالنفس البشرية معقدة وهي عند السادات شديدة التعقيد.

ولكي لا أحير القارئ كثيرا فإنني أريحه من البداية.. لأقول أن هذه العلاقة أو المقاربة تركزت في "مؤتمر نصرة الشعوب العربية" ثم أنتفاضة الخبز وما قبلها وما بعدها.. وطبعا زيارة القدس وما ترتب عليها.

***

كانت مرارة الهزيمة تغمر انفاسنا، لكن ما هو اكثر من المرارة كان يأتي عبر أجواء مسمومة نجحت اسرائيل وحلفائها وعملائها في غرسها في عقول ونفوس كثيرين ممن نلتقيهم في مقابلتنا عبر اجتماعات ومؤتمرات المجلس العالمي للسلام والمفترض فيهم أنهم يخوضون معاركهم ضد العدوان وضد احتلال اراضي الغير. والمثير للحيرة أن الجميع كانوا يعادون العدوان حيثما يقع ويقلبون الرأي العام العالمي علي رأس أمريكا بسبب عدوأنها علي فيتنام مثلا، ثم يصمتون إزاء العدوان الإسرائيلي علينا وما من مكان عقدنا فيه اجتماعا دوليا فيه حتي نجد من يصمم علي اذاعة اغنية اصبحت شهيرة بل الاكثر شهرة حتي أصبحنا نكاد أن نحفظها، وهي أغنية

مطلعها "فلنعبر يا نهر الاردن" وهي تمتلئ تمجيدا للعدوان الاسرائيلي ونسأل ما معني إذاعتها الآن فيهزون اكتافهم "الناس جميعا تحبها".

وفي مواجهة هذه الدهشة الحزينة نجح المجلس المصري للسلام (برئاسة خالد محيي الدين) والذي كان منظمة شديدة الفعالية وكثيرة التأثير في عديد من الاوساط الفكرية والثقافية في أوربا في تأسيس لجنة دولية اسميت "اللجنة الدولية لنصرة الشعوب العربية برئاسة السياسي الهندي ذائع (والذي كان يتمتع بصداقة شخصية قوية مع الرئيس عبد الناصر) ثم وبناء علي اقتراح كتابي من الأستاذ خالد محيي الدين ومدعوم من كريشنا مينون وافق عبد الناصر علي أن يتولي المجلس المصري للسلام الدعوة لعقد مؤتمر عالمي يعقد في القاهرة للعمل علي كسب قطاعات من الرأي العام العالمي لنصرة الشعوب العربية ومعارضة الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية. واقتنع عبد الناصر بالفكرة. واصدر أمره فتحركت كل مفاصل السلطة وتبدي الأمر وكأن مصر كلها باتحادها الاشتراكي وشركة طيرأنها وسفاراتها بالخارج تعمل بحماس في هذا الاتجاه.

لكن الأمر لم يكن سهلا.. فمصر لم تكن حتي ذلك الحين مدربة علي تنظيم مثل هذه المؤتمرات، والمجتمع العالمي لم يكن يمتلك قدرا كافيا من الحماس لمواجهة العدوان الإسرائيلي. والمؤتمر المطلوب كان المقترح يسعي كي يضم الف شخص من مختلف انحاء العالم..

وقيادات الرأي العام فيه وأن يضم شخصيات نافذة في مجتمعاتها أو ممثلة لأحزاب وقوي ومنظمات ذات وجود حقيقي وتأثير فاعل.. وكانت البداية هي الاستعانة بعلاقات واتصالات وقوائم دعوات المجلس العالمي للسلام، وفجأة وجدت العبء قد تم القاؤه علي أكتافي.. وساعتها اكتشفت أن الفارق كبير جدا بين أن تكون مدعوا إلي مؤتمر فتحضر لتجد كل شيء جاهزاً وبين أن تقوم أنت بإعداد كل شيء ليكون جاهزاً.

وبدأت البدايات

* فندق النيل سيخلي للوفود تماما.

* الاجتماعات العامة واللجان بالمبني الملحق بمقر الاتحاد الاشتراكي.

* تذاكر الطائرات .. مصر للطيران تصرفها مجانا بتوقيع مني.

* تبقي الخبرة وهنا ارسلت في استدعاء "فاروجيان سلاطيان" (سوري- ارمني -عمل في سكرتارية المجلس العالمي، وبرع في التحضيرات الادارية لسنوات عديدة وكنا صديقين حميمين). فحضر علي الفور وطلب فوجد علي الفور ما أراد.. آلات كاتبة (عربي -افرنجي) عاملين علي هذه الآلات بكفاءة- مترجمين (عربي- فرنسي- انجليزي) ماكينات طباعة من مختلف الاحجام والانواع.. وفي أقل من ساعتين كان كل شيء جاهزا. إلا الغرف التي تكفي هذا العدد فقد كان المجلس المصري للسلام يجلس القرفصاء في عدد محدود جدا من الغرف في الدور التاسع من مبني

الاتحاد الاشتراكي. واتصلت تلفونيا بمسئول المبني طالبا غرفتين أو ثلاثة وفي خمس دقائق أتي كافة المسئولين في المبني موظفين ومديرين ومهندسين وفجأة اكتشفوا أو بالدقة كشفوا عن غرف كانت مغلقة (بحجة أنها تضم أوراقا هامة وممنوع فتحها فإذا بها مليئة بالعنكبوت وأنها إغلقت عنادا أو خوفا من الاتهام من جانب احد كبار مسئولي الاتحاد الاشتراكي آنذاك من التواطؤ مع خالد محيي الدين) المهم أخليت غرف فاضت عن فيض حاجتنا، وتم تأثيثها بسرعة غريبة وانسكبت عشرات من السجاجيد والستائر ولم ينسوا في غمرة الانبهار المحموم بأن هذه أوامر السيد الرئيس أن يفرشوا بساطا احمر يمتد من فوهة الاسانسير وحتي غرفة الأستاذ خالد التي تغيرت ستائرها في لمح البصر هي ومكتبها وكل أثاثها.

* وفي ذات الصباح انفتح باب الغرفة بغته وإذا بأحد كبار مسئولي المبني يأتي لاهثا وهو ينحني قائلا: اتفضل يا افندم وقدم "الافندم" نفسه "محمد السعيد" سكرتير السيد سامي شرف. كانت هناك حقيبة كبيرة تشبه حقائب السفر يحملها احد السعاة ووضعها أمامي علي المكتب وكان السيد القادم يتكلم ويداه تفتحان الحقيبة فإذا بها مملوءة بالنقود، وقال: اتفضل عد الفلوس..وهي ربع مليون جنيه للمصروفات النثرية والمشتريات التفصيلية وبعد الأنتهاء من المؤتمر تقدم كشف حساب، فأغلقت الحقيبة وقلت هذا المبلغ يسلم للشئون المالية في الاتحاد الاشتراكي وأنا أصرف منه بموجب اوراق موقعة مني يحدد فيها سبب الصرف. بدأ الأخ

يتحدث بلهجة آمره "التعليمات اللي عندي.." فقلت بصوت حازم أنا لن استلم أي نقود وإلا سأنسحب من عملية الاعداد للمؤتمر.. اتصل "الافندم" "بأفندم" اكبر.. وبعد اتصالات "علوية" تمت الموافقة، وعاد الساعي بحمله الثقيل.. لكن الانباء سرعان ما تناثرت في ارجاء المبني وكأنها تحكي حكاية غريبة.

وفي هذه الأثناء كلف الرئيس نائبه أنور السادات بأن يكون مسئولا عن المؤتمر وأن يرأس عمليات الإعداد له وترتيبات انعقاده وضمان توجهه السياسي وبدعم كل هذه الأجهزة مضافا إليها خبرة فاروجيان الهائلة دارت الماكينة.. الدعوات ارسلت برقيا إلي أكثر من الف شخصية في مختلف انحاء العالم من رجال السياسة والثقافة والفن والدين واساتذة القانون الدولي.. وأنتظم العمل عبر موظفين وموظفات من هيئة الاستعلامات.. واكثر من شانون امتلأ بصور الدعوات المرسلة.. وغيرها كاد أن يمتلئ باستجابات الموافقة ورسائل من سفاراتنا تقترح ارسال دعوات لشخصيات هامة اخري.. والاسماء هامة جدا وكأن هذا السيل كان ينتظر فقط من يحركه ويزيح استار تردده.. والاستجابات تتوالي من اسماء لامعة "انديرا غاندي" "السيدة باندرانيكه" (رئيس سيرلانكا السابقة) - جاك بيرك - مكسيم رودنسون- الأب بارت (احد كبار رجال الدين الكاثوليك بفرنسا) ومعه اقتراح بأب آخر هو الاب بارمأنتييه والاب جومييه وهو كاثوليكي ذا مكانة رفيعة واسماء عديدة هامة جدا. وتوالت رسائل من الخارجية تفيد بأن سفاراتها تعكس اهتماما في اماكن عديدة بهذا

المؤتمر وأن شخصيات عديدة هامة جدا تريد الحضور وتمددت الاماكن إلي استراليا ونيوزيلاندا وامريكا الجنوبية وافريقيا.. وكانت الخارجية ومكتب الرئيس يتابعان تقريبا كل يوم.. إيه الأخبار؟ وهل تطلبون مساعدة؟ هل أنتم واثقون من نجاح المؤتمر؟ واقترب موعد المؤتمر وتحددت المسئوليات.. وتقرر فتح صالة كبار الزوار بالمطار طوال أيام الحضور والسفر دون حاجة إلي اخطارات مسبقة وإنما يكتفي بطلب المرافق.. وعشرات المرات جلست مع فاروجيان لأراجع معه التفاصيل وأدق التفاصيل وكنت ألح. وهو يتململ فهو واثق، وأنا خائف، أنه الفارق بين المبتدئ والمحترف المتمكن ..وفيما يقترب الموعد ازداد التوتر وتكاثرت الاتصالات وسافر الأستاذ خالد ليوجه بنفسه دعوات لعدد من الشخصيات الاوربية البالغة الاهمية وأعددت أنا بطاقة دعوة لترسل إلي كبار المسئولين والسفراء ورجال الاعلام لحضور الجلسة الافتتاحية التي سيحضرها الرئيس جمال عبد الناصر ويلقي فيها خطابا مع التحذير من ذكر ذلك حتي لا تتداخل عناصر غير مرغوب في تداخلها..

وأمسكت بورقة وكتبت..

السيد المحترم....

يتشرف خالد محيي الدين

سكرتير اللجنة الدولية لنصرة الشعوب العربية

بدعوتكم لحضور....."

وبدأت المعركة.. والمقاربات الممتده مع السادات.

مقاربات مع ثلاثة رؤساء ومشير

عبد الناصر - السادات - مبارك - طنطاوي

د/ رفعت السعيد

د. رفعت السعيد

مقاربات مع ثلاثة رؤساء ومشير

عبد الناصر – السادات- مبارك- طنطاوي

تمت طباعة هذا الكتاب
بشركة الأمل
للطبع والنشر والتوزيع
(أخوان مورفاتلي سابقاً)

Al Amal Co.
for printing, publishing and distribution

(كتب - مجلات - فلايرات
بروشورات - بوسترات - اوت دوور
إن دوور - بانرات - فينيل ....
وجميع المطبوعات الاوفست

المدير المسئول
وليد يسرى

١٩ شارع محمد رياض
أرض شريف - عابدين - القاهرة
تليفون : ٢٣٩٠٤٠٩٦ فاكس : ٢٣٩٠٢٤٩٦

E-mail: w_aldosouki@yahoo.com

فما أن أرسلت هذا النص إلي المسئولين بالاتحاد الاشتراكي لطباعتها علي ورق أوصيت أن يكون كوشيه فاخر ومعها قائمة طويلة جدا طالبا طباعتها وتوزيعها علي عناوينها.. إذا بشحنات كهربائية سرت سريعا لتصل إلي السادات (نائب رئيس الجمهورية) والذي كلفه الرئيس بمتابعة اعمال المؤتمر.. ورنين تليفون والمتحدث الأستاذ عبد السلام الزيات وكان لصيقا ومساعدا للسادات فقال بهدوئه المعتاد وبكلمات أتت متراخية ولكنها ماكرة "أظن أن الافضل أن توجه الدعوة باسم السيد النائب" وببساطة ولأنني لم أكن أعرف طبائع الاوضاع "قلت المؤتمر شعبي وليس حكومي وكثير من الشخصيات سألوا بل واشترطوا ألا يكون مؤتمرا حكوميا وهم يعرفون أن الحكومة تكمن خلف المؤتمر لكنهم يريدون الحفاظ علي الشكل..؟

لم يتركني كي أكمل وتغيرت لهجته وصارت حازمة "سيبك من هذه الشكليات السيد النائب يري ضرورة أن توجه الدعوة باسمه.. فهو رئيس المؤتمر بقرار من الرئيس. وبدأت معركة. ولعل كل ما سبق من صفحات عن الاعداد للمؤتمر كان تحضيراً لهذه الاحتكاكات والمماحكات والمقاربات حول هذا الموضوع الذي تبدي بسيطا فإذا به معقد جدا. ثم شخط وسألني فين الأستاذ خالد وكأنه يقول "أنت مالكش دعوة" فقلت هو في أوربا ليوجه الدعوات للشخصيات الهامة. وضع السماعة غاضبا وبعدها بدقيقة كان في مكتبي هو وأحمد الخواجة، ولم يكن أي منهما مستعدا حتي لمجرد

الاستماع لأي حجج.. السيد النائب أمر وأنت تطيع. وبغضب شديد ألقيت لهم بمفاتيح الدواليب والشانون المملوء بالعناوين والدعوات والردود وقلت اتفضلوا أنتم كملوا الاعداد للمؤتمر. وجاء فاروجيان علي صوت الضجيج ودون تشاور معي قال أنا موفد من السكرتارية الدولية للمجلس العالمي للسلام لاساعده فإذا انسحب فأنا منسحب، وفيما اسرع مغادرا لحق بي أحمد الخواجه وكان صديقا عزيزا. وعضوا في قيادة المجلس المصري للسلام امسك بي وسحبني بعيدا وكانت همساته مشفقة وصادقة وصديقة وقال "الراجل غضبان جدا ولا تضع نفسك في موقف العداء الشخصي له أمام الجميع، فهو هكذا يستحيل أن يتراجع وهاج عندما قالوا له رفعت مش راضي فصاح بأعلي صوت سمعه الكثيرون "مين سي رفعت ده، أنا قررت وقراري لازم ينفذ". وقال أنتظر في مكتبك وأنا سأحاول تهدئته. هدأت قليلا وقال فاروجيان ابحث عن حل.. وجاء رنين تليفون والحل جاهز" أنا فوزي عبدالحافظ.. اتفضل سيادة النائب عايزك" كان النائب قد اتخذ مكتبا في ذات المبني.

وفورا ادخلني فوزي عبد الحافظ إلي مكتبه وكان وحده ولعله تعمد ذلك، وما أن دخلت حتي صاح بمودة مغلفة ببعض الغضب "أنت عامل مشكلة ليه يا ابني؟ أنت ناسي أن خالد اخويا وحبيبي، وهو لو كان هنا كان لا يمكن يرفض طلبي" وإذ حاولت أن أشرح وجهة نظري فقاطعني "يا دكتور (بفتح الدال) علشان خاطري.. عيب تمشي كلامك علي قدام كل الناس ياللا يا واد اسمع الكلام

قالها بمودة لا يمكن إلا قبولها.. فابتسمت ولمح السادات بذكاء أنني اتراجع.. وقال ياللا يا دكتور (أيضا بفتح الدال) اشرب الليمون وفكر كده بهدوء، وفيما اتلفت باحثا عن ورقة وقلم ناولني قلمه الذهبي وورقة.. وكتبت.

برئاسة السيد محمد أنور السادات

نائب رئيس الجمهورية

تبدأ جلسات المؤتمر العالمي لنصرة الشعوب العربية، ، وذلك في تمام الساعة...

وأتشرف بدعوة سيادتكم للحضور

خالد محيي الدين

سكرتير اللجنة الدولية لنصرة الشعوب العربية

(فاروجيان هو صاحب اقتراح أن يكتب اسم السادات بحروف كبيرة.. واسم خالد بحروف صغيرة) . وكان البايب قد استقر مشتعلا بين أسنانه.. واتسعت ابتسامة مرتاحة، وأخذ القلم الذهبي ووقع باسمه "تطبع وتوزع".

وقال وهو يشكرني "متشكرين يا دكتور.. أنا معاكم علي طول في المؤتمر واتصل بي كل يوم وفي أي وقت علشان ابلغك تعليمات الرئيس". وأضاف سيادة الريس مهتم جدا بالمؤتمر..ونادي يا فوزي ، وأتي فوزي فقال له "الدكتور يدخل في أي وقت". وفيما اقف لاغادر وقف هو أيضا وسلم علي بموده شديدة وقال "انشاء الله نتعاون مع بعض ويكون مؤتمر كويس".

وكان كل ما سبق حديثا عما سبق انعقاد المؤتمر نفسه. أنتهت المنازعة المفتوحة مع "السيد النائب" وبدأ التعامل الودود جدا والمعقد جدا معه.. ولكنني وبعد فترة من المقاربات المشحونة بمناكفات اتقنت -أو هذا ما اعتقدت- اساليب التعامل الساداتي مع الآخرين.. وتعاملت معه في اطارها الملغوم دوما.. ونبدأ

.. بدأ توافد الوفود.. من سلم الطائرة يستلمهم أحد المندوبين وينهي اجراءاتهم وهم في صالة كبار الزوار وإلي فندق النيل.

لكن الوفد السوري بدأ المشكلات في أعلي سلم الطائرة صاح وزير الخارجية السوري وكأنه يريد أن يسمع دمشق.. نحن نعلن من الآن أن قرار ٢٤٢ خياني والموافقة عليه خيانة ولن نسمح بأي حال بالموافقة عليه.. اسرعت إليه في أعلي سلم الطائرة وقلت له حالا سأصطحبك إلي السيد أنور السادات نائب رئيس الجمهورية لتلبغه برأيك، فأنتفض وهو لم يزل علي أعلي درجة في سلم الطائرة هذا ليس رأي هذا قرار.. المهم اصطحبته بالفعل إلي مكتب السادات.. الذي كان أمامي قد ابلغ الوفد المصري في الصباح إصرار الرئيس علي ضرورة التمسك باقرار المؤتمر لقرار ٢٤٢ لأن هذا هو الخط الفاصل الذي يحسم موقفنا أمام الغرب الذي لم يزل مترددا.. وبدأ وزير الخارجية السوري يتحدث بوقار مؤكدا أن سوريا ترفض القرار وأنها علي استعداد للانسحاب من المؤتمر لو كان الهدف منه اقرار الالتزام بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ كالعادة ابتسم السادات و"اتفضل وشرب الليمون.. وقال خليك معانا يا دكتور (قالها الآن محترمة) ثم قال

"احنا مالنا ومال قرار ٢٤٢ ، الشيوعيون بتوع السوفييت هم وحدهم الذين يتمسكون به. كان يتحدث ونظراته مثبتة باتجاهي لكنني كنت لم أزل مبتدءا في فن التعامل الساداتي. المهم وكالعادة في المؤتمرات الدولية انعقدت لجنة لصياغة مشروع البيان الختامي.. الوفد المصري مكون من الانبا صموئيل (وقد اغتيل فيما بعد مع السادات في حادثة المنصة) وأنا وفي اللجنة آخرين منهم ماخوس (سوريا) البروفيسور كولان (فرنسا) والبرفيسور مكسيم رودنسون (فرنسا) والاب بارت (راهب كاثوليكي شهير) ثم هندي وأمريكي وممثلان افريقيان. وفي البداية بدأ ماخوس متحدثا بالفرنسية معلنا ضرورة تجنب ذكر قرار ٢٤٢ وحاول كولان الحديث عن اهمية اعلان التمسك بقرار مجلس الامن ليكسب المؤتمر مصداقية لكن باخوس قال جملة غليظة "المصداقية لا تعني أن نخون الوطن" ارتبكت الجلسة، الناس جميعا ينظرون إلي وأنا صامت.. أنبا صموئيل مال علي أذني لازم تتكلم ولم أرد.. وأخيرا تمت صياغة بيان يدين قرار ٢٤٢ باعتباره مؤامرة علي العروبة وعلي قضية فلسطين. وأخذت مسودة البيان واستأذنتهم في أن نلتقي بعد نصف ساعة بعد التشاور مع دول أخري ليست ممثلة في لجنة الصياغة وأخذت مسودة البيان وسلمتها لفوزي عبد الحافظ وتركته مسرعا.. وأنا اكاد أجري لكنه ارسل خلفي عديدا من السعاة وأنا في طريقي إلي الفندق.. لحق بي أحدهم "السيد النائب عاوزك فورا" وعدت علي مهل وما أن لحني حتي صباح غاضبا "يا ابني مش الصبح بلغتكم بقرار الرئيس بضرورة

التمسك بقرار ٢٤٢" . فقلت "يا أفندم أنت قلت لماخوس كلام غير ذلك فأنا تصورت أن الموقف تغير" رد السادات "افهمني بقه علشان مأنتعبش مع بعض أن اقول كلام "فك مجالس" وأنت تضرب وأنا ألاقي فهمت؟ وأضاف البيان ده لو الريس شافه أنا أروح بيتنا وأنت علي السجن، وقال في أسف.. حنخرج من الورطة دي ازاي؟ فقلت مفيش ورطة ولا حاجة" فيما أخرج مسرعا صاح "استني افتكر كويس أنا علي بيتنا وأنت علي السجن" . دخلت إلي اجتماع اللجنة التي كان عقدها قد انفرط.. واستدعيت الباقين وما أن اكتملت اللجنة حتي قمت بمباغتة الجميع وأنا اتظاهر بالغضب" أنا اسف إذ أعلن أن الوفد المصري سوف ينسحب رسميا من المؤتمر. لكن المؤتمر سينعقد ونحن ملتزمون بكل التجهيزات والترتيبات والاحتياجات. أنتم ضيوفنا وستظلون ضيوفنا وخذوا ما شئتم من قرارات لكن وفدنا لن يحضر. تجمدت الملامح ودهش الحاضرون وسأل رودنسون "والسبب؟" فقلت بهدوء "الوفد المصري لا يستطيع الاستمرار إذا كان البيان الختامي يرفض القرار ٢٤٢ الذي هو في صلب السياسة الرسمية المصرية. تكلم كولان مصمما علي كتابة بيان جديد يتضمن ما تريده مصر لأن هذا هو التوجه العام في أوربا. وهنا ارتفع من ماخوس بالعربية سباب بذئ ضد كولان (اخو.....) فتأفف انبا صموئيل من البذاءة لكن ماخوس عاد إلي استخدام ذات السباب. المهم استعادت الوفود أنفاسها وتم الاتفاق علي مشروع البيان الختامي وفق ما أردناه بالاجماع ماعدا سوريا- وبعد التصويت نطق كولان

بعربية سليمة "معالي الوزير اشكر لك حسن أدبك" وارتبك ماخوس.. وهو ينسحب.

عدت إلي السيد النائب بمشروع البيان الختامي قرأه سريعا وقال "ايوه كده" ثم سألني عملت ايه وحكيت الحكاية فإنفجر ضاحكا "برافو يا دكتور (بفتح التاء) ثم قال كده نعرف نتعامل مع بعض. أنت تضرب وأنا ألاقي.. والعكس وسأل ماشي؟ وقلت ماشي فسلم علي بمودة شديدة.

لكن المشكلات تواصلت مع الوفد السوري.

كنا قد اقمنا مركزا للترجمة والطباعة في القاعة السفلية بالمبني.. وكلف الأستاذ فوزي حمزة من قيادة مجلس السلام المصري بالاشراف عليه.. والتعليمات لا تطبع كلمات افراد ولا بيانات فردية وعموما لا تطبع ورقة إلا إذا أتت من مكتب السيد النائب أو كانت موقعة مني.

وفي الجلسة العامة صاح ماخوس ما شاء له الصياح وندد بالموقف المصري والاوربي وبكل من يؤيدون قرار ٢٤٢. وبعد أن أنهي خطابه نظر إلي مزهوا وكانت آخر كلماته "احذروا المواقف الخيانية والعميلة" بعدها بدقائق حضر إلي صديق عزيز هو الشاعر الفلسطيني ابو سلمي، وقد التقطت أذناه أن الخطاب السوري يجري طبعه الآن بالمطبعة الخاصة بالمؤتمر، نزلت مسرعا إلي مركز الطباعة لأجد العمال منهمكين في تجميع وتدبيس "كلمة الوفد السوري" واتجهت ملتهبا إلي فوزي حمزة وكان يتحدث بمودة إلي

شخص لم أنتبه إلي ملامحه.. صرخت في وجه فوزي مين أمر بطبع الورقة دي؟ قال فوزي مبررا "أصل معالي الوزير..." ولم أتركه يكمل الله يخرب بيتك لبيت الوزير" فصاح الواقف معه "لا تسب الوزير" فصحت من سمح للراجل ده يدخل هنا؟ بره.. وأسرع الحرس وأخذ الذي اتضح فيما أنه السفير السوري سامي الكيالي وأنه صديق حميم لعبد الناصر ومثقف بارز ومترجم شهير لكثير من الروايات الذائعة الصيت.. (وبعدها "قال لي السادات أن السفير ده أهم بكثير من الوزير)، وفي دقيقة أخري كان ساعي غرفة النائب يستدعيني ودخلت لأجد الوزير والسفير في حالة غضب شديد وقبل أن افتح فمي أنقذني السادات من ورطتي وقال "خلاص.. خلاص الموضوع انتهي.. نفذ طلبات الإخوان" خرج الوزير مزهوا وفيما الحق به ناداني السادات.. "المرة دي أنت اللي غلطان.. الورقة مرت من تحت دقنك وأنت المسئول مش عايز نسخة تتسرب.. وأنت عارف أنا علي فين وأنت علي فين"، وعلي المدخل كانت نسخ الخطاب ترتاح في كومين كبيرين والوزير يوزعها بنفسه.. واشتعلت في رأسي فكرة شاهدتها في أحد الافلام اسرعت إلي مدام نفرتيتي مترجمة اللغة الفرنسية وكانت مترجمة معنا بالمجلس المصري.. وشرحت لها ما أردت وفي ثواني كانت تصيح بصوت نسائي مثير.. مسيو ماخوس.. مسيو ماخوس" رد ماخوس بالفرنسية "وي" فقالت بالفرنسية أيضا دمشق علي التليفون وتصور المسكين أن الرئاسة السورية تسأله عن الأخبار فترك كل

شيء وأسرع إلي حيث التليفون في غرفة بعيدة.. يصرخ "وي.. وي".. ألو.. ولا أحد يرد وعاد بعدها بدقائق ليجد أن أكوام الخطاب اختفت.. وأنا أيضا اختفيت وبحث عني حتي عثر علي وسألني "وين الورقات" فقلت مبتسما "الجماهير تخاطفتها".. وكنت قد ذهبت للسادات وحكيت له ما حدث.. وظل يضحك لفترة طويلة.. وبعدها قال " اسمع يا وله أنا عايز استلفك من أبو الخلد تشتغل معايا.." وقلت هو مش حيرضي أنا مش حا أرضي..

وأصبحنا أصدقاء.

* وطوال فترات المؤتمر كانت هناك مشكلات قد نشعر في البداية أنها صغيرة لكنها ليست كذلك.. ففي منتصف الليل ايقظني مدير الفندق وقال فيه ضيف هندي توفي.. سمعنا انين بصوت عالي ولما فتحنا لقنياه مات. لم أشأ إيقاظ السادات فقد غادر في المساء المتأخر وهو مرهق.. أيقظت فوزي عبد الحافظ فقال حرام خليه نايم.. اخيرا ايقظت هندي آخر من الوفد فصرخ قائلا ده "سيخ" ولهم طقوس خاصة جدا.. وتولي الاتصال بالسفير الهندي الذي امر ألا يدخل أحد غرفته حتي يحضر وحضر ومعه "سيخ" آخر وفي الصباح المبكر حملوه وقالوا أنهم أرسلوه إلي الهند.

* وسيدة إفريقية ظلت تصرخ في صباح يناير شديد البرودة رافضه الخروج من غرفتها وتقول للمرافقة "اريد ناصر" وتكررها فقط اخيرا قالت للمرافقة لم اتصور أن جو القاهرة بارد جدا وليس معي ملابس تقي من البرد، وتذكرتها وهي تخطر مرتدية شيئا لا هو

فستان ولا ساري هندي وانما بين بين. وقلت للسادات لابد أن نشتري لها ملابس.. وقالت المرافقة وهي واحدة من كوادر منظمة الشباب دي عايزة "غيارات داخلية" وفساتين شتوي.. والسادات قال "يا ابني مفيش بند مصروفات اسمه "شراء ملابس للوفود"، ثم صاح في فوزي عبد الحافظ شوف الانسة عايزة كام علشان تشتري للضيفة ملابس واعطيها من فلوسي.. وفيما تنصرف المرافقة قال لها"اكرميها علي الآخر دي سمعة مصر يا بنتي" وتبين لي وجه جديد "للسيد النائب".

* وأخيرا انتهت أيام المؤتمر.. وبدأت الوفود في الرحيل.. ثم أتت مكالمة، آمرة من السادات "عمك كريشنا مينون مسافر الساعة السادسة صباحا وطلب أن يتحدث إلي مؤتمر صحفي قبل مغادرة الفندق يعني الساعة 4فجرا.. فقاطعته مستحيل نلاقي صحفيين في الوقت ده، فقال وهو يتنهد من الارهاق يا ابني اتصرف ده راجل محترم. وشال معانا المؤتمر علي اكتافه وكانت كلماته مسموعة وبعدين هو صديق للريس ومش عايزينه يسافر وهو زعلان.. فقلت يعني ممكن نعمل مؤتمر صحفي كده وكده.. قال طبعا.. هات اولاد وبنات من المرافقين وحتي موظفين من الحرس اللي لابسين مدني يعني راضوه.. فقلت طيب أنا سأطلب منه أن يكون المؤتمر مثلا الساعة 9 مساء فقال يا سيدي أنا وهو رايحين نتعشي عند الريس ومعرفش حنخلص إمتي.." وبالفعل نفذت الاقتراح وأنا خائف وامتلأت القاعة بحضور يمسكون اوراقا ويتظاهرون بالكتابة وبكاميرات

تلمع فلاشاتها.. ولم ينتظر كريشنا مينون اسئلة (مجرد سؤال واحد) ما هي انطباعات سيادتك عن المؤتمر؟ وتكلم.. وتكلم واستمر متحدثا.. حتي همست في أذنه يجب أن نسرع إلي المطار.. وفيما يصعد إلي الطائرة سلم علي وشكرني ثم قال "ارجو أن ترسل لي قصاصات الصحف التي ستنشر وقائع المؤتمر الصحفي".

وفي الصباح كان لقاء وداع مع السيد النائب سألته "الراجل طالب قصاصات الصحف حأعمل إيه.. فقال مبتسما "ولا يهمك هو سينسي الموضوع كله أول ما يركب الطيارة".

***

وظل التباعد يتباعد بي عن التلامس مع ما يخص السادات وبالذات بعد أن اصبح رئيسا، وتأسس منبر اليسار وأسس السادات معه نظرية الخيط والعصفور، فالمنبر أي منبر من الثلاثة عصفور له حق الطيران ولكن في الفضاء الذي يحدده الخيط المشدود بين رجل العصفور ويد النظام الممسكة به.. وما أن بدأ المنبر في تكونه كجنين حتي ادرك السادات أنه صعب المراس ويحتاج إلي يد صعبة المراس تشد الخيط بحزم.. وكان أخشي ما يخشاه هو ما صوره موسي صبري له من أن المنبر أصبح مأوي للماركسيين.. وأن شجرة اليسار إذ ولدت لتتمدد اغصانها سريعا بل وسريعا جدا قد اصبحت مأوي لعصافير عديدة يصعب تطويعها بخيط وحيد فقرر تقليم أظافرنا وبدأ الخيط ليصبح اقصر فأقصر. وباغتنا موسي صبري بعد أيام من قيام المنبر بمقال افتتاحي في مجلة آخر ساعة استغرق عدة صفحات

تحدث فيه عن سيطرة الماركسيين علي منبر اليسار ووضع بدهاء صورتي واسمي علي رأس المسيطرين ، وبذلك دس الملح في جرحين وليس جرحا واحدا فغير الماركسيين في قيادات اليسار العليا والوسطي بدأوا يتشككون ويتشممون دون جدوي في الرائحة الماركسية فلا يجدونها أو يتصورونها في بعض عبارات عادية . . أما الماركسيون فقد بدأوا يثيرون المخاوف من سيطرة "حدتو" علي الوجود اليساري ولما كان موسي يتودد معي دوما بصداقة مفترضة طلبته تلفونيا فرد ضاحكا وسأل عجبك المقال" فقلت لا ، وزعلان كمان لأنك لم تقل الحقيقة ، فقال هذه قواعد اللعبة وعليك أن تعتاد عليها ، وقال لازم نسخن الحياة السياسية حتي تنضج علي نار الهجوم ، والهجوم المضاد فقلت أي هجوم مضاد أنت تشتم وتكذب ونحن لا نجد وسيلة نرد بها عليك ؟ فضحك قائلا . . استحمل أمال عايزين تشتغلوا بالسياسة علنا كده ببلاش ، واتفقنا أن نلتقي والتقينا في نادي الجزيرة وكان موسي قد اشعل ضدنا هجمات في كل صحف أخبار اليوم . . وعاتبته فقال : أنت عبيط ؟ هو أنا اقدر اكتب ده كله إلا بناء علي رغبة السادات وحكي كيف كان السادات يكلمه وهو يضحك سعيدا بما يكتبه ضدنا . لكن الفكر القابع في أعماق موسي صبري وجدها فرصة ليتجلي في مهاجمة اليسار .

ثم ألقي موسي صبري قنبلة أعلي من هذه الهجمات ، قنبلة صوتية عالية الضجيج ، فقد فتش في برنامجنا وقرأه بدقة (وأكاد اجزم بأن احدا من المسئولين لم يقرأه أصلا فقد صوتت اللجنة

المركزية للاتحاد الاشتراكي ومعها اعضاء مجلس الأمة في اجتماع مشترك علي قبول البرنامج دون أن يقرأه أحد) فالأستاذ خالد ذهب إلي الاجتماع فيما اذكر بست نسخ (وعدد المجتمعين حوالي ٧٠٠) وارتفع صوت د. رفعت المحجوب الموافق علي برنامج منبر اليسار يتفضل برفع يديه وارتفعت كل الايادي وأقر البرنامج. المهم فتش موسي صبري في البرنامج ووجد عبارة تؤكد تمسكنا بالمطالبة بحق العمال في الاضراب عن العمل في حالة عدم تنفيذ مطالبهم.

ونفخ في بالونه مطلب الاضراب واخذ يعيد ويزيد تضربون عن العمل ضد من. ضد أصحاب القطاع العام أي ضد الشعب، ثم أنتم يسار وتهيمون حبا في الاتحاد السوفيتي فهل مسموح هناك بالإضراب أم أنها محاولات مسمومة تستهدف هز الاستقرار الاجتماعي؟ وفجأة اتصل السادات بخالد وطلب رسميا شطب هذه العبارة من البرنامج.. واعتقد أن السادات أنتهزها فرصة ليجس نبضنا، ويتعرف علي امكانية الضغط علينا ومدي مساحة الخيط المتبقية للطائر. وبهذا الطلب كان السادات يكاد أن يسحب كل الخيط وأن يودع الطائر في قفص. وكان رد الأستاذ خالد هادئا فقال سأجمع السكرتارية العامة وأعرض عليها الأمر فهي التي اقرت البرنامج.. وفي اجتماع السكرتارية كان ثمة حماس من البعض وثمة وجوم من البعض الآخر. وكانت العيون تتساءل هل سيغضب السادات؟ وكيف؟ وإلي أية حدود، لكن السادات اكتفي بذلك وتركنا إلي حين. لكنني أود أن أسجل أن عضوين من السكرتارية العامة وكانا عاملين ولهما مكانة

نقابية مهمة وبعد ضمهما السكرتارية بدت بوادر توحي بأنهما مدسوسان علينا من أحد الاجهزة الامنية كانا من أشد المتشددين في رفض الاستجابة لمطلب السادات فهل كانت تقية؟ أم كانت محاولة للزج بنا إلي أتون صدام مبكر؟ وعلي أية حال فقد أتي الصدام محمولا علي أعناق جماهير أنتفاضة الخبز.

وبعد اجتماع السكرتارية المعهود واصل الطائر المشدود إلي الخيط تحليقه متحررا وأن كان يتم التضييق وفق حسابات دقيقة جدا، ويتحدي السكوت والانصياع في توازن شديد التوازن .. يعارض. يحتج، يحتد في كيمياء تعلمنا كيف نتعامل في اطارها دون أن ندفع النظام إلي غضب لا نحتمله.. وأكاد أقول أنها حسابات كانت جديدة تماما علي اليسار وهي ليست مكتوبة في كتاب. فبها تعلمنا أيضا أن نمنح الحكم حكمة التعامل معنا بلا جنون (وأن كنا قد عانينا من الجنون فيما بعد).. أنها حكمة لخصها خالد محيي الدين في عبارة "إجرح خصمك دون أن تسيل منه نقطة دم" ومضي موسي صبري في محاولة تنغيص حياتنا لكن مفعوله كان يقل رويدا رويدا.. وأكاد اقول أن الفضل في ذلك يعود إلي تشكيل ما اسميناه "لجنة المتابعة" وكانت تجتمع يوميا.. في كل صباح لفترة وجيزة وتضم "خالد حيي الدين- حسين فهمي- د. خلف الله- د. فؤاد مرسي- د. إسماعيل صبري -لطفي الخولي (وكان صاحب اقتراح تشكيل هذه اللجنة) وأنا" وكنت أعد لهم قائمة بالمسائل المطلوب إبداء الرأي فيها. ونجتمع في التاسعة بمن حضر ويمكن أن يحضرها أي عضو في

السكرتارية يريد الحضور. ومن هذا الاجتماع اليومي تكونت تقاليد الحكمة التجمعية والعمل الجماعي.

ثم كانت أنتفاضة الخبز التي أسماها السادات أنتفاضة الحرامية. القيسوني اصدر قرارا برفع أسعار بعض السلع، وكانت الجماهير قد فاض صبرها مثل لبن وضعته علي نار هادئة وأخذ يسخن ويسخن ثم جاءت الاسعار الجديدة لتشعل النار وهجا مخيفا وفار اللبن.. ومعه كل ما تراكم من صبر عبر سنوات سابقة. الطائر الآن افلت ساقه من الخيط وحلق في الفضاء بلا حدود. كانت المظاهرات تملأ كل الشوارع.. في كل المدن وحتي في كل القري.. وامتدت الايدي الغاضبة في بعض الأحيان إلي سيارات انيقة لتحرقها ومساكن محافظين لتقتحمها وتفرغ ما فيها من ملابس وحلي و حتي ما في الثلاجات من اطعمة.. وتبدت الجماهير غاضبة غضبا عصبيا ويكاد أن يكون وحشيا. ولم يكن هناك في الشارع إلا نحن. فالإخوان اصدروا بيانا يدينون فيه الأنتفاضة وهاجمها محمد عبد القدوس الذي كان تقريبا متحدثا رسميا باسمهم قبل أن تبرز قياداتهم الحقيقية، وكذلك الأحزاب الرسمية " الأحرار الاشتراكيين" ومصر العربي الاشتراكي.. ادانا هما أيضا المظاهرات، فالأخير منهما كان حزب السادات.. والاول رئيسه مصطفي كامل مراد الموالي علي الدوام للنظام. أما نحن فقد أرسل باسمي تليكس (عبر جهاز المبرقات) وكان يتصل بكل فروع ومقار الاتحاد الاشتراكي.. وكانت البرقية تقول لاعضاء حزب التجمع (كان المنبر قد اصبح

حزب التجمع) التحقوا بحركة الجماهير وامنعوا استخدام العنف) ووفق قرار مسبق كانت اي برقية يتعين أن توقع من جانبي شخصيا . وكان اعضاء التجمع قد التحقوا دون اذن من أحد وكانت الجماهير تحملهم علي اعناقها فهم يحملون شعارات تزيد الناس حماسا .

وعند ظهر اليوم الأول . . اتصل بي د . مصطفي خليل وكان قد اصبح الأمين العام للاتحاد الاشتراكي ليطلب في ادب شديد ألا ترسل البرقية . . وقال الرئيس عاد من السودان إلي أسوان وهو ثائر جدا وانصح بعدم ارسال البرقية (كانت مفاتيح ارسالها في يده وحده ولا مجال حقيقي لغير ذلك) فقلت لكننا نطلب ايقاف العنف فقال وتطلب الالتحاق بالمظاهرات . وقلت "حضرتك اتصرف" . فقال سأوقف ارسالها . قلت حضرتك اتصرف فأرسل برقية إلي كل فروع حزب التجمع في المحافظات نصها "برقية رقم ٩١ . . يوقف العمل بالبرقية رقم ٩٠ - رفعت السعيد" والمثير للدهشة أن د . مصطفي خليل كان يتصور أن البرقية ٩٠ قد ارسلت وأنهم أخطروه بارسالها للعلم . وهاجت كل تليفوناتنا . . ماذا في البرقية رقم ٩٠ . . وكانت فرصة لنشرح لهم ما بها .

وفي اليوم التالي تواصلت المظاهرات وكانت اكثر شدة واتساعا (وهنا أريد أن اعترف أننا وجدنا انفسنا في مأزق ، فالنظام لا يتراجع والمظاهرات لا تتراجع وليس امامنا سوي الاستمرار ومن ثم تحمل مسئولية العنف المتصاعد الذي كنا نحاول ايقافه وحدنا دون جدوي . . واخيرا صدرت عدة قرارات : حالة الطوارئ - حظر

تجول- حملة اعتقالات شملت أكثر من الفين من اعضاء حزبنا الذي كان قد اصبح حزبا من عدة اسابيع فقط ، الغاء قرارات القيسوني- نزول الجيش إلي الشوارع.. ومع نزول الجيش توقفت المظاهرات.. لكن السادات الذي كان لم يزل في أسوان أراد أن يضمن توقفها نهائيا. وربما كانت حيلة ماكرة أو خوف جدي من تفجرها مرة أخري فقد طلبني حوالي التاسعة مساء الدكتور مصطفي خليل طالبا مني أن اتوجه مباشرة إلي مبني التليفزيون لأطالب الجماهير بالهدوء وعدم التظاهر، وقال اعرف أن هناك حظر تجول وسوف أرسل لك سيارة من طرفي لتذهب بها..

قلت لا أستطيع . فأنا لست مخولا باصدار بيانات أو احاديث تليفزيونية باسم التجمع- ثم أنني إذا طلبت ايقاف المظاهرات.. التي كانت توقفت فعلا فإن ذلك سيعني أنني الذي نظمتها كما يدعون.. ألح د. مصطفي وأنا اراوغه وألمح برفق بأن الأمر كله سوف يلقي علي عاتقي وحدي فأنا صاحب البرقية الموقعة باسمي. الرئيس غاضب جدا.. ورفضت باصرار. وفي الصباح الباكر وكان اليوم جمعة والتليفون لا يكف عن الازعاج.. والمتحدثون يسألون في دهشه "أنت في البيت؟" ايوه. راديو لندن قال انك اعتقلت- ثم راديو بغداد قال انك اعتقلت ثم راديو مونت كارلو.. ثم ابعت اشتري الجمهورية واحضرتها فإذا بالمانشيت الاحمر "القبض علي رفعت السعيد مدبر أنتفاضة الحرامية". وكل هذا وأنا في بيتي لم أزل واتصلت باللواء منير محيسن في أمن الدولة وسألت اية الحكاية

فقال يا سيدي مش أنت كل يوم جمعة والعائلة بتروحوا نادي القاهرة وبعد ما الاولاد يلعبوا بتتغدوا سمك خلاص روح والاولاد يلعبوا واتغدوا سمك.. وعدت وطلبت من ليلي أن تعد شنطة استعدادا للقبض.. وفي البيت أنتظرت حتي أتوا. كان الضابط واسمه العقيد محمد عبد الفتاح ودودا ورفض أن يقتحم غرفة الاولاد وكانوا صغارا وقام بتفتيش شكلي وهو يقول ضباط قسم الشيوعية قالوا لن تجد عنده شيئا.. وبالفعل لم يجد شيئا.. وطلب أن نستعد للنزول فقلت اشوف أمر النيابة.. مفيش أمر نيابة.. وظللت مصمما حتي ارهقته فأجري اتصالا برئيس الجهاز فكلمني ورفضت.. وبعدها كلمني وزير الداخلية قائلا"هناك أمر جماعي" ولا تماطل اكثر من كده وعلشان خاطر الاطفال ما يقلقوش انزل معاهم بهدوء..وكانت ليلي قد رفضت مبدأ أن تعمل لهم شايا.. ونزلت لأجد الشوارع خالية إلا من الدبابات.. وأخيرا هذا هو سجن القلعة رأيته مئات المرات وأنا صاعد لابحث عن وثائق خاصة بكتاب الأساس الاجتماعي للثورة العربية.. وبرسالة الدكتوراه.. وفتح الباب .. ضابط دلوعه اتضح أنه أنتدب علي عجل من قسم الخليفة من صدره المفتوح تتدلي سلسلة ذهب سميكة.. احسست بعسكري يقف خلفي وقال الضابط بلهجة آمره اقلع النظارة فقلت ليه؟ قال النظام هنا تتغمي عينيك وأنت داخل ورفضت وهددني. سأستخدم القوة، قلت لا تستطيع وانصحك اتصل بوزير الداخلية وقول له أني رافض أتغمي صرخ فعلا صوتي علي صوته.. وبدا أنه

خاف من شخص يتحدث عن وزير الداخلية ببساطة..واتصل تلفونيا فجاء الرد يدخل من غير ما يتغمي.. فقام متضررا وسحبني وقذف بي إلي زنزانة "2" التي اصبحت فيما بعد سكني المفضل لعدة حبسات تالية ثم قذف أحد العساكر بطانية علي الارض صعد منها تراب كثيف بمجرد انحنائها إلي الارض الاسفلتية.. الزنزانة اضيق من الزنازين التي اعتدت عليها في السجون الاخري وثمة لمبة كهرباء ضخمة مسلطة من اعلي الحائط المواجه.. والشباك في السقف. وكما اعتادت سلالة الفراعنة وجدت أن السجناء السابقين المتتالين نقشوا علي الجدران شعارات ورسوم وحتي "وصية" كتبها صالح سرية قبل اعدامه يرجو فيها من يقرأها أن يبلغها لأهله.. وفيها يطلب إلي أهله سداد ديونه إلي فلان وفلان.. ثم عبارة أخري بتوقيع "سعد" (شكري مصطفي) "كل هم يزول" فأحسست بالراحة رغم البطانية المشبعة بالتراب واللمبة المسلطة في وجهي وفيما أخرج بيجامة سمعت صوتا "رفعت السعيد وصل"؟ والإجابة نعم. فين؟ في زنزانة ٢ وفتح الباب ودخل شخص آمر ويرتدي ملابس مدنية أنيقة وصرخ في الضابط إيه ده؟ هات فورا سرير ومرتبة وملايات ومخدات وبطانية نظيفة.. وقال.. معلش احنا متأسفين (وقلت في نفسي ايه الأدب ده) ويبدو أن الاهتمام قد أتي من اهتمام السادات بتوجيه إتهام لي شخصيا بأنني الذي نظمت الأنتفاضة.. قالها للصحفيين ثم في خطاب لمجلس الامة وتوعدني "أنا مش حاسيبه". ومرة أخري قرأت "كل هم يزول

ونمت" وفي الصباح فتح الباب واطل الضابط ذو السلسلة الذهبية وسأل حضرتك مين؟ وكنت مغتاظا منه فسألته "حضرتك عندك كام سنة؟ فصفق الباب غاضبا.. وعاد الضابط الآمر ويبدو أنه نام في غرفة خاصة.. وسأل فيه ايه؟ فرد ذو السلسلة ده يا افندم دمه تقيل قوي. ففتح "هذا الافندم الباب" وقال احنا يا دكتور عايزين نتعامل بالراحة مع حضرتك لأن دي التعليمات والنظام هنا خاص جدا.. فسألت مادام فيه جرايد وكتب مفيش مشكلة فقال اصل هنا مفيش جرايد ولا كتب فقلت هاتوا مصحف فقال ولامصحف فقلت لائحة السجون فيها أن للمسجون الحق في كتاب سماوي فقال هنا مفيش لوايح فيه تعليمات. قلت والفتح فقال للاسف مفيش فتح دلوقت لحد ما تشوف النيابة . واتي الافطار وكان لا بأس به واغلق الباب.

وبعدها حضر طعام من البيت وطعام من زينب أختي ولم أعرف ماذا أفعل بذلك كله.. ودقه علي الباب، وفتح فناولت الشاويش كومة من الطعام أخذها مرعوبا وجري بها إلي الجناح البعيد عن غرفة المأمور التي تواجه بشباكها المفتوح باب زنزانتي. وطلبت الذهاب إلي دورة المياه فأنتصب الشاويش كتمثال تمام يا افندم نمرة ٢عايز يروح الدورة، واتي الصوت قفل كل الزنازين.

وبعد الظهر فتح الباب وأطل رأس الشاويش اتفضل قابل النيابة فطلبت مهلة لألبس البدلة فقال مفيش لزوم النيابة هنا. ولم استطع ابتلاع الدهشة لبست روب فوق البيجامة وذهبت معه لأجد المستشار عدلي حسين ودار حوار هادئ.. غاضب أولا.. كيف يحقق

معي في السجن؟ هذا مخالف للقانون. وبهدوء كان المستشار يفهمني أن الأمر خطير. وأن الاتهام خطير وأن الاوضاع خطيرة .. وبعد مداولات .. لمحت مما يقول ردا علي اعتراضاتي القانونية أن الأمر كله سياسة ولا مجال لحجج قانونية، وقلت لكن التحقيق سيجري باطلا فقال معلش وسنحاول أن نجد ولو حلا شكليا.. وهنا قلت خلاص عندي شرط .. قال المستشار شرط ايه تاني؟ فضحكت قائلا اطلب فنجان قهوة سادة بن غامق.. وأسرع المأمور الذي سمع طلب المستشار باحضار القهوة بنفسه. وفتح المحضر كما املي السيد المستشار "بالغرفة التي خصصت للنيابة في سجن القلعة"، وجري الحوار كما توقعت.. هل ارسلت برقية تحريض .. وأنا اقول البرقية لم ترسل وأوقفت.. ونعود ونكرر واستمرت التحقيقات تتوالي.. وبعدها هدأت الأمور وبدأت التحقيقات لتجري في مقر نيابة أمن الدولة.. لكن الحوارات هي، هي ذاتها حتي اصبحت شكلية ولا تأتي إلا كي تنتهي بتجديد الحبس "ويعود المتهم إلي محبسه". وكانت الأمور تجري بصعوبة بالغة مع حزب التجمع ألفان القي القبض عليهم.. واخرون نقلوا تعسفيا إلي اماكن نائية وباختصار تلقن التجمع الوليد مفردات شديدة القسوة سجون، مطاردات، اضطهاد في كل مكان وحملات اعلامية شديدة القسوة وتسيد موسي صبري المشهد وأفردت صحف الأخبار صفحات كاملة لأسماء قالت أنها استقالت من التجمع.. وتبدي الأمر وكأنهم ينشرون نعيا للديمقراطية والتعددية الحزبية .. وكانت الاستقالات

كثير منها صحيح، أفراد حسني النية أتو إلي منبر اليسار ثم التجمع متوهمين أنهم أمام اختيار سهل فإذا به يتحول إلي ما يهدد مصائرهم وحياتهم الوظيفية واستقرارهم العائلي والوظيفي فاستقالوا ليس من التجمع وإنما من مجمل الاهتمام بالسياسة، لكن كثيرا أيضا مما نشرته الأخبار من اسماء مستقيلة كان كاذبا ومتلبسا بأسماء وهمية.. المهم دارت طاحونة السادات محاولة أن تطحن المولود اليساري المعاند لكن السادات كان رغم دوران الطاحونة الغاشمة لم يزل يحافظ علي شعرة معاوية حتي لا ينهار حزب التجمع فتضيع تجربة التعددية.. وتمادي السادات في الضغط الذي لا يكتم كل الانفاس وإنما يبقي لها متنفسا وإن محدودا.. كان المولود اليساري يمتلك فقط من العمر تسعة أشهر منذ اعلأنه منبرا وحتي اعلأنه متمردا ومسئولا عن التخريب والدمار وأنتفاضة للحرامية.. ولعل القدر قد جعل من الاشهر التسعة رمزا موحيا فبعدها ومن خلالها وبرغمها ولد التجمع من جديد، ولادة عسيرة، صعبة.. قاسية.. قيصرية لكنه كان ميلادا جديدا متخطيا محاولات الاجهاض ومتحولا إلي جسد تنظيمي شديد الصلابة.. بعد أن تخلص من أسماء أتت بحسن نية وليست مستعدة لأن تحتمل.

وكنت وأنا في الزنزانة اعود فأكرر وأكرر بصوت نصف مرتفع مع أني كنت وحدي في الزنزانة المحكمة الإغلاق.. شعر عبد الله النديم:

صلينا يا هموم فقد علمنا
بأنا الصلب صلبا لا يلينا

لـنـا جـلـد عـلي جـلـد يـقـيـنـا

إذا زاد الـبلا زدنـا يـقـيـنـا

لكنني لا أريد أن اغادر هذه الاسطر القاتمة دون أن اسجل حكاية ارقتني وعلمتني أن في هذه الدنيا دنايا لا يمكن تصورها.

ففيما كانت الأمور قد هدأت قليلا في سجن القلعة.. نقلت إلي غرفة جانبية وهذه علامة للحراس أن بالامكان فتح باب الزنزانة ولو مواربا.. وأن اتمشي في الطرقة ولو منفردا ..وأتي معتقل جديد.. أطعمته وساعدته واحضرت له غيارات من الخارج فلم يكن مسموحا بأي شيء وأوصيت الحراس بأن يفتحوا له باب زنزأنته وحاولت أن امنحه قدرا من التماسك.. هو كان منهارا فقد اوشك علي أن يعين في مجلس الدولة بعد تخرجه بتفوق من كلية الحقوق .. ثم خرجنا معا إلي محكمة النظر في تجديد الحبس.. والقاضي كان مخصصا لنا ليأمر بتجديد الحبس في كل مرة..وصاح الحاجب "محكمة" ودخلت الهيئة ورئيسها المتخصص في حبسنا المستديم.. وهنا وفجأة اكتسب هذا الفتي الذي عاش أيامه في الزنزانة مسكينا، قوة لا اعرف كيف اختزنها وصاح يا سيادة المستشار أنا عندي كلمة.. فاعطاه المستشار الكلمة متأففا فإذا بهذا الفتي يقول في تمسكن أنا لا اعتراض لي علي السجن ولا علي ضياع مستقبلي فأنا كنت علي وشك التعيين في مجلس الدولة فهذا مقدر ومكتوب ولا اعتراض لي ما قدره سبحأنه وتعالي. ولكن ارجوك أن تأمر بنقلي بعيدا عن هذا الرجل وأشار إلي وقال أنا اردت أن أنتهز الفرصة لاتعبد في زنزأنتي

لكنه يقطع علي صلاتي وتعبدي بل ويتهكم علي تديني.. فأرجوك ابعدني عنه، وطبعا لست بحاجة إلي أن اؤكد أنه كان كاذبا ولم اره يركع ركعة واحدة وكان يزعم أنه ناصري وأنه يتمني أن ينضم إلي التجمع.. المهم وجدها المستشار فرصة ليواصل تجديد حبسي.. وأمر بإخلاء سبيل الكاذب، أما انا"يعود إلي محبسه ويجدد حبسه ١٥يوما". وبعدها تمدد الكاذب في منصبه بمجلس الدولة..وخرج علي المعاش نائبا لرئيس المجلس.

وفي السجن كان يتردد باستمرار الضابط الانيق والذي يرتدي دوما ثيابا مدنية واصبحنا أصدقاء عرفت من الحراسة أن اسمه الذي ينادونه به "سيادة العقيد مجدي" هواسم مصنوع وأن اسمه الحقيقي العقيد نديم حمدي.. واشهد أنه كان مهذبا وكان يدرك عن يقين أن اللعبة كلها معاندة سياسية وستنتهي سياسيا. وبالتالي لم يرد أن يتصادم بعنف ولو بأقل قدر وذات يوم استدعاني إلي غرفته ولاحظت يده تمتد إلي درج المكتب..تعبث في شيء ما وتستمر في العبث وادركت أنه يدير جهاز تسجيل واسترخيت منتظرا، دار الحديث عدة دورات وفي النهاية وصل وبحذر شديد إلي ما يريد "لدي رسالة لك من السيد ممدوح سالم يبلغك فيها مطلبا بأن تستقيل من حزب التجمع وتترك عضويته نهائيا وأن تتعهد في ورقة الاستقالة بأن تتوقف عن أي نشاط سياسي من أي نوع" وساعتها سيفرج عنك فوراً وكنت لم أزل مسترخيا ارتشف فنجال القهوة المعهود "سادة بن غامق" ولكني ادركت في اعماقي أن اللعبة

السياسية في نهايتها وممدوح سالم يريد أن يخرج منها وقد كسب شيئا، فقلت هل تعدني بأن تنقل ردي إليه؟.. فتردد لأنه شعر أن الرد سيكون قاسيا.. وقال منتظر ردك.. فقلت قول له "طظ فيك" فأنا سجنت ١٢عاما ولم أبع نفسي لأحد. أما هو فأنه لن يبقي في الحكومة أكثر من أسبوعا. وقمت واقفا.. وأنا أعرف طريق زنزأنتي وناديت الحارس "اقفل الزنزانة". وفي اليوم التالي سمحوا لوفد من نقابة الصحفيين بزيارتي (وكان ذلك ممنوعا) ويرأس الوفد الأستاذ محمود المراغي ومعه الأستاذة امينة شفيق والاثنان من قيادة التجمع.. فقلت لهما ما حدث ضاحكا. وبعدها بيوم أتي الدكتور عصمت سيف الدولة المحامي الموكل عني فقال سمعت بالعرض وأنا لدي عرضا سيحفظ كرامتك فأنا سأطلب من الأستاذ خالد أن يفصلك من الحزب بدلا أن تستقيل أنت فتبدو ضعيفا.. ورفضت في هياج وقلت لا يمكن أن يفعلها الأستاذ خالد ولو فعلها سأعلن اصراري علي عضوية التجمع.. وفشلت الصفقة.

وبعدها ذهبت مرة أخري للتحقيق وكان المستشار عدلي حسين يكرر ذات السؤال واكرر ذات الاجابة.. أرسلت البرقية حرضت الجماهير.. قلت لحزبك التحقوا بحركة الجماهير. وأرد وقلت قاوموا التخريب، والبرقية لم ترسل علي أية حال..

وكان في الطرف الآخر من الغرفة شخص لم أعرفه يضع رأسه بين كفيه صامتا ثم طلب من المستشار عدلي أرجوك إتركنا. وما أن خرج حتي قال لي.. أنت مناكف ليه؟ يا اخي حاول تهدي كده ونوصل

لحل .. فأجبته بعنف قائلاً "وحضرتك تطلع مين" .. فقال مندهشا أنت مش عارفني؟.. وذكرني أنه مصطفي طاهر وكنت مسئولة في خلية مدرسة الابراهيمية الثانوية وكان معه في الخلية بدوي محمود وعبد الباسط خلاف وكمال القلش ونبيل غالي، وتذكرته.. ففي ١٩٥٢ كنت فعلا كنت مسئول قسم ثانوي وقسم جامعة ابراهيم (عين شمس) ..وأخيرا سألني أنت متأكد أن البرقية لم ترسل، وانك وافقت علي عدم ارسالها.. فأجبت بنعم ، وهنا قال المستشار المحامي العام لنيابة امن الدولة "والرفيق سابقا": علي فكرة أنت مفيش أي شيء ضدك إلا قصة البرقية، ولكن السادات لاسباب سياسية يريد افتراسك ولكني سأحاول أن أمنعه من افتراسك. فقلت لأ.. لا تضحي بموقعك الهام جدا من أجل مسألة أنت تقول أنها لا دليل فيها فلا بأس ببضعه اشهر اخري في السجن، وبعدها اذهب إلي القضاء وبالتأكيد سأخرج، ثم سألني هل تعتقد أن الدكتور مصطفي خليل سيقول الحقيقة؟ قلت: معرفش، فقال فلنجرب. وعاد المستشار عدلي حسين، وبدأ المستشار مصطفي طاهر المحامي العام لنيابة أمن الدولة في الاملاء بناء علي طلب المتهم يوجه خطاب إلي السيد الدكتور مصطفي خليل أمين عام الاتحاد الاشتراكي لسؤاله حول واقعة ارسال البرقية محل الاتهام من عدمه.

وعدت إلي محبسي ثم كانت واقعة الكاذب الذي أصبح مستشارا وقرار المستشار الصدفي باستمرار حبسي وبعدها بأسبوع وكان القاضي الصدفي قد تغير بآخر حضر العقيد نديم ليقول

مبروك صدر قرار من المحامي العام لنيابة أمن الدولة بالافراج عنك والمعتاد أن ننتظر حتي يصلنا الخطاب رسميا بالافراج عنك.. لكنني إستأذنت في أن نخلي سبيلك اليوم.. قلت من فضلك بلغ ليلي فقال كلمتها وهي في الطريق وسريعا جمعت اشيائي وخرجت.

وكنا قد تواعدنا أن نلتقي في كافتيريا الميريديان بعد ثلاثة أيام والتقنيا ومع الكابتشينو قال آن لك أن تعرف اسمي الحقيقي فأخرجت من جيبي ورقة فيها اسمه الحقيقي الذي ابلغني به أحد الحراس "العقيد نديم حمدي" فضحك.. وحكي قصته كيف كان مندوبا لأمن الدولة لدي منظمة فتح في بيروت.. وكيف تابع القضية الفلسطينية واقام صداقات مع أصدقائي هناك.. وكان يتابع من بعيد زياراتي لهم في بيروت..

وبعدها بفترة كانت زيارة السادات للقدس.. فقدم الرجل استقالته.. وقال لي في لقاء أن ممدوح سالم قال له عندما قدم الاستقالة أنا كنت عارف أن صداقتك برفعت السعيد مش حتنتهي علي خير.

لكن القصة لم تصل بعد إلي حبكتها الدرامية فبعد سنوات وكان السادات قد رحل والاتحاد الاشتراكي أنتهي ود. مصطفي خليل ترك كل المسئوليات.. دعيت إلي الغداء عند السفير الفرنسي وادخلوني علي غرفة جانبية للضيوف المهمين وهناك كان السفير والدكتور مصطفي خليل ولطفي الخولي. وشخص أو شخصين لا أعرفهم، ولطفي يواصل مناكفة د. مصطفي ويلح في

المناكفة ومصطفي خليل رجل مهذب ويكتفي وجهه بالاحمرار مع ابتسامة بسيطة.. لطفي مصمم علي أن مصطفي خليل أحد صناع زيارة القدس وكامب ديفيد واتفاقية السلام.. ويهاجم، ويهاجم والرجل صامت وأنا صامت. فالتفت لطفي نحوي قائلا أنت ساكت ليه؟ قول حاجة. قلت أنا لا أريد أن اتدخل فأنا مدين للدكتور مصطفي خليل بدين ثقيل في عنقي ولا استطيع حتي أن أنتقده وهنا ازداد الاحمر في وجه الرجل وقال متشكر..وأصر السفير أن يعرف الحكاية، فحكيتها وكيف أن الدكتور مصطفي خليل غامر فشهد لصالحي ولم يخف من غضب السادات وافرج عني من قضية كان السادات يريد أن يسجنني فيها بعديد من السنوات. لم ينطق الرجل.. وأنتهي الغداء. وفيما اغادر توجهت لاصافح مصطفي خليل وأجدد شكري له، فأمسك بيدي وتباعد بي عن الجميع وقال أنت لم تعرف بعد اصل الحكاية ومن حقك أن تعرف.. فأنا عندما جاء لي خطاب المحامي العام لنيابة أمن الدولة، اتصلت بالرئيس السادات وابلغته وسألني هل البرقية لم ترسل فعلا وقلت لم ترسل وهو قال لي اتصرف. فإذا بالسادات يقول : حرام يا مصطفي أنا صحيح لا أحب هذا الولد ابن.....(رفض المهذب مصطفي خليل أن يكمل الشتيمة) لكن حرام ابعت جواب قول فيه الحقيقة.

وهكذا تأتي لقطة أخري من شخصية السادات..

ولم أزل أتي إلي مقاربات أخري.

***

وكانت زيارة السادات للقدس بداية لمرحلة مختلفة تماما في العلاقة بين التجمع والسادات الذي بدأ وبمودة شديدة داعيا الأستاذ خالد كي يرافقه في زيارته للقدس ورفض الأستاذ خالد بشكل قاطع، فاقترح أن يصاحبه في الزيارة أحد اعضاء مجلس الامة من التجمع ورفضنا. وفي الصباح وفيم كانت لجنة المتابعة مجتمعة كان التليفزيون لا يمل من اذاعة اغنية أم كلثوم "وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبني دعائم المجد وحدي" وكان الهادئ دوما، والوقور في هدوئه الدكتور خلف الله في غاية الانفعال الذي وصل به إلي درجة الغليان.. وزادته كلمات اغنية ام كلثوم غليانا وفجأة إتصل بي تلفونيا أحد اصدقائي من الصحفيين الذين تواجدوا في صالة كبار الزوار بالمطار ليسجلوا لحظات مغادرة السادات للقدس.. وابلغني بوجود احد اعضاء البرلمان من ممثلي حزبنا وهو النائب علي جميل من الفيوم مع المسافرين (وقيل أن يوسف والي أغراه أو اغواه بأن مرافقته للسادات ستفتح له كل الابواب وهو ما لم يحدث فحتي في أنتخابات برلمانية أتت متعجلة لم يرشحه حزب السادات واختفي اسمه نهائيا). أبلغت الجالسين بالأمر وبلا جدال طويل وافق المجتمعون بالاجماع علي فصله نهائيا من الحزب. وبعدها غادرت الغرفة واتصلت بمراسل الاسوشيتيدبرس وكان موجودا بمكتبه ليلاحق الانباء وردود الافعال عبر عدد من مراسليه.. وقلت له سأهديك خبرا هاما جدا بشرط أن ترسله فوراً للوكالة وان تطلب منها توزيعه فورا ووافق. وطبعا ألح أن أمليه الخبر بالتليفون

فرفضت. حتي لا يعرقل المتنصتون ارسال الخبر- وبالفعل ارسلت الزميل محمود حامد بالخبر.. وفيما كان السادات في الطائرة تلقي صورة من برقية الاسوشيتيدبرس التي وزعت باقصي سرعة، وكان هياج السادات شديدا وزدات خصومته اشتعالا..

***

والآن هل تريدون مقاربة أخري وأخيرة .. سأوردها لأنها قد تمثل احدي ملامح الصورة الساداتية .. وأن لم تكن علاقتي بها إلا مجرد الاستماع لها من مصدرها. كنت لفترة صديقا لمحمود ابو وافية عندما كان مجرد رئيس لجمعية منتجي أو مصدري البطاطس (لا اذكر بالضبط) وكانت بداية تعرفي به وأنا أعد دراسة عن المنابر لمجلة الطليعة وكان ابو وافية ممثلا لمنبر الوسط.. كان رجلا بسيطا وسلسا في تعاملاته..سألته هل كنت تعد نفسك منذ فترة كي تلعب دورا سياسيا فقال ضاحكا ابدا، "أنا أصلي واد صايع وابن بلد ومش بتاع وجع دماغ لكن هي جت كده. وقلت له طبعا الكلام ده مش للنشر فقال ليه انشر.. ولم انشر وتوالت مقابلاتنا حتي استبأنت العلاقات بين ابو وافية والسادات والمبنية علي المصاهرة وهنا تقارب الاخصائيون في التقارب المفعم بالنفاق.. فتباعدت.

ثم كانت همسات ثم أخبار مؤكدة عن غضب السادات عليه. وتقاعد ابو وافية وتباعد أو بالدقة تم إبعاده وإنزوي عن الانظار ولم يبق له من عمل سوي جمعية البطاطس ولما احسست أن السطوة إنحسرت والنفاق لم يعد لازما للمنافقين فهو اصبح غير مفيد بل

قد يخيل للبعض أن التقارب معه قد أصبح ضارا.. احسست ذات يوم أنه يستحق أن يجد من يزوره. وفي جمعية البطاطس كان وحيدا تماما واندفع إلي احضاني قائلا أنت فعلا ابن اصول وتحترم الصداقة القديمة، ودردشنا في كلام لا علاقة له بما كان ولا بالسادات.. وفيما اغادر بعد أن قلنا عشرات النكت وشبعنا ضحكا.. اصطحبني إلي الاسانسير واصبح الهمس بلا تنصت قلت له هو حصل ايه؟ فقال والله ما أعرف، كل اللي حصل انني زرته في القناطر وجلسنا نتسامر وكان بشوشا ومبتهجا.. وفجأة سألني: ايه رأيك يا محمود أنا هاعمل كذا (لم يبح بما يختبئ خلف كذا ولم اسأله) فقلت "بس ياريس. فإذا به ينفجر في وجهي هادرا، هو أنا كل لما اقول لك حاجة تقول بس..امشي.. ثم امشي اخري. وتصورت أنها غضبة وتزول ولكنها كانت نهاية كل شيء.. وفيما اقترب من فوهة الاسانسير الذي لا لزوم له لأن مكتب البطاطس كان في الدول الاول.. قلت له.. بس كده؟ فصرخ ضاحكا.. تاني بس ومضيت وضحكاته تلاحقني.

واستأذن في أن أنتهي من حديثي عن مقارباتي مع السادات متناسيا عديدا منها لكنها كانت ستعتبر تكراراً لا لزوم له.

مع مبارك

وربما لأن مدة حكم مبارك قد استطالت زمنا طويلا.. فاستطالت معها تراكمات الأحداث والمقاربات، أو ربما لأن مبارك كان الأكثر تباسطا (معي علي الأقل) من عبد الناصر ثم السادات.. فإن المقاربات يمكنها أن حاولت التقارب معها كتابة أن تستغرق الكثير من الكتابة وقد تتراكم لتصل إلي مجلد لا يمكن الاطمئنان إلي تواصل القارئ عبر صفحاته علما بأن بعضها قد يبدو بالنسبة لي ملائما للنشر أو معبرا عن شخصية الرئيس لكنه قد يبدو في نظر البعض ليس مما يمكن اعتباره في التقييمات التاريخية جديرا بالمعرفة (ألم نقل اكثر من مرة أن علم التاريخ عند الاغريق القدامي هو علم ايراد الأحداث الجديرة بالمعرفة التي وقعت في الماضي). ومن ثم لا مناص من الأنتقاء وليغفر لي القارئ إذا تلمس البحث عن شيء فلم

يجده، فعبر مقاربات وتعاملات استمرت ثلاثون عاما يمكن لشجرة الذاكرة حتي وان اعتمدت علي بعض مدونات سجلتها للتذكرة أن تتساقط بعض اوراقها أو حتي ثمارها وطبعا ولأن الأحداث قريبة ولأنها قد تماست مع شخصيات لم تزل فاعلة في الحياة العامة.. فلسوف احتفظ ببعضها دون اشهار.. أو سأحتفظ ببعض الاسماء.. أما الخصوم السياسيين كقيادات جماعة الإخوان الارهابية فإن ضميري لا يسمح لي بأن أهاجم أو اقتحم بعضا مما فعلت هذه الجماعة.. فلست وَغداً إلي درجة أن أهاجم خصما في محنة ومكمم القلم ولا يستطيع الدفاع عن نفسه.

ولنبدأ

وبطبيعة الحال سنبدأ باللقاء الأول. فبعد وصول الرئيس إلي السلطة.. بفترة وجيزة اتصل د. اسامة الباز ورتب اللقاء (ولم يكن د. زكريا عزمي قد ظهر في الافق بعد) وذهب وفد من التجمع ليقابل الرئيس.. الأستاذ خالد ود. يحيي الجمل وعبد العظيم المغربي وأنا. وكان مبارك ودودا ودائم الابتسام وعندما دخل علينا أدي التحية العسكرية بجدية تامة للاستاذ خالد.. الذي قدمنا له.. وما أن قدمني له حتي قال ضاحكا منك لله طلبت ملفك لأعرف معلومات عنك فكل عدة صفحات اقرأ قبض عليه، حكم عليه، سجن.. أنت ايه يا ابني؟ ولم أجد ما أرد به. لكنه لم يفته أن يفعلها مع د. يحيي الجمل.. فكما رأيته بعد ذلك وهو يفعلها عشرات المرات مع كثيرين تلمس "كرشه" قائلا .. كرشك كبر يا دكتور يحيي. فقلت محاولا

اذابة ما قد يعلق بالاذهان من هذه العبارة "نبعته يا سيادة الرئيس ليلعب معك اسكواش". فنظر إلي الرئيس نظرة اشفاق. وبدأ الحديث مغلفا بالمودة.. وتعلقت بالذاكرة فقرتان الأولي.. عندما قال الأستاذ خالد: يا سيادة الريس في السنوات الأخيرة كان ثمة تصادمات عديدة وشد وجذب بيننا وبين الرئيس الراحل السادات الذي كان يفاجئنا كل يوم بقرار يجعل من تجاوزه خطا أحمر، ونحن نريد أن نقلل الخطوط الحمراء التي كانت مفتعلة أيام الرئيس الراحل.. فقال مبارك مفيش خطوط حمراء فقط لا تتصادموا مع ذوي الكابات الحمراء (قادة الجيش) والثانية لا تهاجموا السيدة جيهان السادات. فقال الأستاذ خالد نحن نحترم القوات المسلحة وقياداتها.. وصمت. وأنا سألت "أنا لست معترضا علي موضوع السيدة جيهان لكن تسمح لي عايز أعرف ليه حضرتك طلبت كده" فأجاب اجابة لم تزل ماثلة أمامي خاصة بعد ما حدث لأسرة مبارك.. فقال "علشان أضمن لما أموت أن محدش يشتم مراتي" (ودار الزمان ليأتي بما لم نتوقعه ولم يتوقعه أحد). أما الفقرة الثانية فعندما حاول يحيي الجمل أن يفسح مساحة للتعامل، وقال نحن لنا علاقات عربية واسعة ويمكن أن نوظفها لصالحكم فرد مبارك هذه مسائل سيادية ولا يجوز لأحد أن يتداخل فيها. ثم تطرق الحديث إلي الحكام العرب فكانت رؤية مبارك تتبدي مبسطه وأن كانت تتلامس مع طبيعة كل رئيس منهم، صدام (العراقيون دائما متشددون والتعامل معهم صعب) الأسد (الساسة السوريون يتعاملون معنا كتجار مهرة يتظاهرون بالمودة والطيبة

لكنهم يسعون لأكبر كسب ممكن.. ومضي ليذكر ملاحظاته علي كل رئيس فمثلا عن ابو عمار قال بيتكلم بروحين فهو يبدي رأيا ثم يدفع أحد رجاله ليقول رأيا معاكسا.. ثم يتصرف وفق منطق آخر، أما عن القذافي فقال مخادع ولكن عبيط وكلما تقارب وطلب المصالحة نعلن حالة طوارئ تجاه التصرفات الليبية وساعتها نكتشف أنه يدبر مؤامرة ضدنا، وصمت قليلا وقال تصوروا كان بيرتب أنه ينسف السد العالي.. المهم اختتم مبارك تقييم الرؤساء العرب دون أن يذكر جمهورية اليمن الجنوبي، فقلت حضرتك نسيت اليمن الجنوبي.. فانفجر ضاحكا .. وقال وقعت في الفخ.. مش أنت كتبت عنها النجم الاحمر الساطع في سماء اليمن.. دول مش دولة دول مجموعات قبلية متصارعة. وفيما حاولت الرد قال مبارك تقبل شهادة خالد بك.. فقلت طبعا. فتحدث مبارك متسائلا يا خالد بك الراجل ده وأشار علي يقول أن الماركسية هي نظرية علمية .. ونظر إلي قائلا صح؟ فقلت صح . فقال فين الدولة للماركسية؟ هم مجموعات تدعي الماركسية لكنهم في الجوهر قبليون.. وهو يعني طائر النظرية العلمية والعلم رفرف فوق العالم العربي كله ومالقاش غير اكثر البلاد أمية وتخلفا وأقام دولته هناك.. ومضت المناقشة سلسة بعد ذلك.

ومضت العلاقات بعدها سلسة وهي أيضا:

ثم كانت غضبة تلاشت سريعا. بعد وصول مبارك إلي السلطة كنت أزور دمشق وكان الرئيس حافظ الاسد يقابلني كلما مررت

هناك، وفيما كنت جالسا عنده جاء اتصال تليفوني.. فقال الأسد بعد أن استمع للمتحدث أنتظر. ثم توجه لي.. احمد حمروش وصل الآن لمطار دمشق. ونحن نعلم أنه قادم لدعوة لجنة التضامن الاسيوي الافريقي السورية إلي اجتماع لجان التضامن العربية بالقاهرة لاصدار بيان بتأييد مبارك ومساندته. فما رأيك؟ قلت نحن لم نزل نحاذر من تأييد مبارك لأنه لا يكف عن التصريح بأنه سيتبع سياسات السادات ونحن اختلفنا مع السادات ومع سياساته ومن ثم صعب جدا أن نقول نحن نؤيده. وأنا اقترح ألا تحضروا الاجتماع فأنت ثلاثة أصوات، فقال: كيف؟ فقلت: معكم صوتكم وصوت لجنة التضامن الفلسطينية (عبد المحسن ابو ميزر) ولجنة التضامن اللبنانية فضحك أنت تعرف قواعد اللعبة. وماذا عن الآخرين؟ فقلت لجنة التضامن في اليمن الجنوبي سألتنا واجبنا بأن نتريث حتي نتابع بعضا من ممارسات مبارك.. ولم يرد الرئيس حافظ فقط أعاد. سماعة التليفون وقال بمنع دخول احمد حمروش ويعود علي ذات الطائرة التي أتي بها. وفيما حاولت أن اعترض علي هذا الاسلوب.. وضع سماعة التليفون وقال "صار" وحاولت اقناعه بالسماح بدخوله ورفض الحضور قال "صار" أنت شرحت موقفك ونحن تصرفنا بمنطقنا.

لكن المثير للدهشة هو أن مبارك عاتب الاسد (وكانا صديقين حميمين لأن مبارك عاش زمنا هو وأسرته في دمشق قائدا لسرب طيران مصري لتعزيز سوريا وكان الاسد وقتها قائد سلاح الطيران.

وقال له الأسد فعلنا ذلك بناء علي طلب رفعت السعيد وعاتبني اسامة الباز نيابة عن الرئيس، وأضاف إلي عتابه احسن تبعد عن العلاقات مع الرؤساء.

لكن العلاقات أتت هذه المرة مع أمريكا.

ففجأة وبعد غياب طويل في أمريكا انقضت علينا مدام صوصه (لتقول أنها صاحبة المبني حيث يوجد المقر المركزي) وقال محاميها الذي أتي معها اوراقنا جاهزة ومستندات الملكية معنا، والحراسة سقطت ومن ثم تسقط معها تصرفاتها. والسيدة المتأمركة عجوز متعجرفة لا تعترف بأي حقوق للغير فقط تقول "هذا المبني ملكي.. واتفضلوا اخرجوا برة. حاولت أن اشرح لها بهدوء أن الأمر ليس بهذه البساطة وأن عقد الايجار يحتفظ بحجيته حتي لو انزاحت الحراسة. لكنها رفعت صراخا مفعما بتهديد بأنها ستلجأ للسفارة الأمريكية والسفارة قادرة علي طردنا. وخرجت غاضبة بينما تتناثر شتائمها بالعربية والانجليزية. والمثير للدهشة أن السفارة الأمريكية حاولت فعلا أن تتدخل، واتصلت ببعض المسئولين الذي ردوا بأنه لا مجال لطردنا من المقر بهذا الأسلوب.

وكان أن أتي إلي مكتبي المستشار السياسي للسفارة، حاول اخافتي في البداية وذكر وبشكل عارض لكنه ماكر اسماء مثل زكريا عزمي ووزير الداخلية ثم اقحم اسم الرئيس مبارك في الأمر وقال أن السيدة أتت معززة برسائل من اعضاء بالكونجرس وأن السفير مهتم شخصيا بالأمر وأنه قد يضطر إلي مفاتحه الرئيس

مبارك في الأمر.. وأوضح أنه شخصيا لا يفهم كيف أن مالكا لا يستطيع أن يتخلص من مستأجر لا يريده، وكان "كروكر" (وهذا اسم المستشار السياسي.. الذي اصبح فيما بعد شهيرا جدا في أحداث بيروت العراق وباكستان) متعجرفا وكأنه يمتلك علينا حق السيادة ثم فجأة ولما وجدني مصمما علي موقفي سألني كم تريد لإخلاء هذا المبني (ولا أدري لماذا تخيلت ساعتها أنه يساومني شخصيا وأنه يريد بأي ثمن أن يبعدنا عن مقر في قلب المدينة وتعقد فيه مؤتمرات شبه يومية تهاجم فيها أمريكا وعملائها واصدقائها) وحاول كروكر بلطف دبلوماسي أن يهددني وقال تقريبا "لقد قررنا أن نأخذ هذا المقر منكم وسنأخذه" فقلت غاضبا "نحن نكرهكم بما يكفي ويزيد، فلا تدفعنا إلي مزيد من الكراهية. وخرج كروكر غاضبا.. أما السيدة صوصه فقد وجدت مشتريا للمنزل بثمن بخس وباعته ورحلت. وبعدها بأسبوع واحد أتي د. إبراهيم سعد الدين وكان يقيم علي ناصية شارع ضيق أنيق من تلك الشوارع التي تتهادي من شارع مراد امام حديقة الحيوان) نحو الحديقة وفي الطرف الاخر نحو النيل. وقال "الأمريكيون يحتلون الآن فيلا في هذا الشارع ويعرقلون المرور فيه كل مساء حيث تحتل سيارات نقل ضخمة الشارع في المساء أساسا، بينما المارينز يحتلون الشارع والجانب الملاصق لسور حديقة الحيوان وضفة النيل من الناحية الاخري واسطح المنازل علي ناحيتي الشارع وهناك معدات ضخمة تحملها أوناش ضخمة إلي داخل الفيلا بينما يجري تثبيت اعمدة

ضخمة اعلي سطح الفيلا. ثم كانت مصادفة اخري لا تتكرر كثيرا فقد حضر زميل لنا يعمل مهندسا معماريا.. وقال أن خاله يعمل مهندسا متخصصا في اجهزة الارسال والاستقبال بالسفارة الأمريكية منذ زمن طويل قد احضر له الرسوم المعمارية للفيلا وللاساسات التي اقيمت عليها وطلب رأيه في امكانية احتمال المبني لاجهزه تبلغ عدة اطنان.. وأنه طلب منه عدم الحديث في ذلك الأمر مع أي انسان لأن الأمر سري للغاية ومنحه مبلغا ضخما نظير الاستشارة ، وقال له وهو يحذره بالفيلا اجهزة حساسة جدا ولا يجوز لاحد أن يعرف مكانها. ولم أكن بحاجة إلي مزيد. وقررت أن ألقن "كروكر" درسا وفي الاربعاء التالي كان مانشيت الصفحة الاولي في "الأهالي" "مركز للمخابرات الأمريكية في فيلا بالجيزة" وفي متن الخبر اسم الشارع ورقم الفيلا وصور المارينز.. وفي صباح ذات اليوم حضر كروكر وكان منزعجا جدا، وأن كان في البداية حاول أن يقلل من خطورة الأمر مؤكدا أن ما في الفيلا مجرد مكتب عادي، قلت أذن لا مبرر للانزعاج . لكنه كان منزعجا فعلا. وفيما يغادر تلكأ عند فوهة السلم حيث لا مجال لتسجيلات . وقال : هل يمكن آن اسألك سؤالا؟ قلت : تفضل. قال اعرف انك رجل مباشر. وسأكون مباشرا معك واحدثك بصراحة. وقال :الخبر بذاته اضر بنا لكنه ضرر يمكن تلافيه.. وقد اكتشفنا اننا ارتكبنا في هذا المكان اخطاء ساذجة.. فالبعض عندنا تصوروا أنهم في بلد من بلدان افريقيا السوداء وتصرفوا بغباء.. وأقول لك بصراحة الخبر الذي

نشرتموه صحيح وقد قررنا نقل كل المهمة خارج مصر. وصمت قليلا وقال: هادئا تكلمت معك بصراحة كاملة فهل تجيبني بصراحة؟ ثم قذف نحوي بسؤال حيرني قائلا "غضبنا من نشركم للخبر لكن ما افزع السفير أنه يعتقد أن مبارك اراد أن يضربنا من تحت المائدة وأنه علم بالخبر وسربه لكم -كسبيل غير مباشر لابعاد محاولتنا لايجاد "محطة" قوية لنا في القاهرة. وقلت بصراحة لقد اشتكي جيرانكم من الضوضاء واحتكاكات المارينز الاستفزازية بهم.. فأرسلنا صحفيا تأكد من الأمر. فسأل مرة أخري فعلا؟ قلت فعلا. فقال: ألم أقل لك أن بعض رجالنا يتصرف بغباء. وصافحني وهز يدي بقوة وهو يقول هامسا "تقبل مني نصيحة، انا احببت فيك انك خصم مباشر وشريف وتتصرف كرجل حقيقي.. لهذا انصحك لا تتعمدوا الدوس علي الغامنا ولا تستثيروا غضب المؤسسة فحتي الكبار فيها قد يتصرفون بحماقة. وسألته هامسا هل أنتم لا تثقون بمبارك إلي هذه الدرجة.. فقال بصراحة "نحن من حيث المبدأ لا نثق في أي مسئول ولكن مبارك بالذات مراوغ ولا نعرف في كثير من الاحيان ماذا يريد منا ولنا بالضبط".

***

وكان مبارك في أحيان كثيرة يوجه أنتقادات لرجاله أمام الجميع لعلها تأتي كتحذير في ثياب فكاهة أو لإشهار أنه ليس كبقية رجاله.. لكنه ظل يفعلها باستمرار وأكثر من مرة (حكيت قصته مع دكتور يحيي الجمل في أول زيارة له كرئيس عندما تحسس كرشه قائلا

"كرشك كبر يا دكتور يحيي") كانت هذه العبارة هي انتقاده أو حتي تحذيره المفضل.. وقد كررها عديدا من المرات مع الوزير كمال الشاذلي الذي اعتاد يتقبلها ضاحكا وقائلا "من فضلة خيرك ياريس" ، لكن تعليقات الرئيس العلنية ظلت دائما مثارا لمخاوف وتساؤل رجاله عن السر في هذا التحذير أو ذاك بشكل علني، وأذكر أن رجل اعمال شهير أصبح محسوبا علي شلة جمال مبارك وكان يمتلك مشاريع كثيرة بالضبعة أو بالقرب منها.. ظل وكلما قابل شخصا مهما أو شبه مهم يقسم له أن الضبعة هي اسوأ مكان يمكن أن يبني فيه المفاعل النووي ويحكي قصة عن اتجاهات الرياح التي ستحمل الاشعاعات إذا وقع خلل في المفاعل والتي ستؤدي إلي فناء اغلب سكان الوجه البحري.. وكنت انا واحدا ممن تلقوا هذا التحذير خاصة بعد أن تحدثت في مجلس الشوري قائلا: أن للشعب المصري قاموسه الخاص فعندما يتكلم عن مفاعل نووي فهو يعني بالتحديد "الضبعة". ويبدو أن هذا المستثمر الكبير قد ثرثر بذلك مع البعض حتي وصلت للرئيس.. وفي مؤتمر عام وفيما الناس ينصرفون صاح مبارك بالمستثمر "يا فلان.. ابعد عن موضوع الضبعة". وكاد الرجل أن يغمي عليه.

وأكثر من مرة فعلها مبارك.

وحتي في يوم كتب كتاب ابنه كمال الشاذلي وأمام جميع المدعوين صاح مبارك ضاحكا في المأذون وكان عضوا في مجلس الشعب "بذمتك يا شيخ حسن، كمال خد منك كام علشان تكتب كتاب بنته".

وهناك أيضا حكايتي مع فاروق حسني .. ففي يوم كتب كتاب جمال مبارك وقف الرئيس والسيدة سوزان وإلي جوارهما جمال وحرمة لتلقي التهاني وتراكم المهنئون كالعادة . وتباعد البعض حتي يخف الزحام وكنت من المتباعدين، واقتربت عندما اوشك الطابور علي الانتهاء وفيما أصافح الرئيس مهنئا فاجأني قائلا.. عايزينك تكتب كتاب تهاجم فيه فاروق حسني ووجدت نفسي أقول: "يا سيادة الرئيس بعد مائتين أو ثلاثمائة سنة سيكتب المؤرخون أنه كان هناك وزير اسمه فاروق حسني في زمن الرئيس مبارك وقد قام هذا الوزير باعادة إعمار وترميم الآثار الإسلامية والقبطية فحافظ عليها" وفوجئت بمبارك يخاطب شخصا خلفي قائلا"ابسط يا عم آدي شهادة لصالحك". والتفت لأجد خلفي فاروق حسني وظل مبارك لسبب ما كلما رآني وكان فاروق حسني حاضرا.. يسأل كتبت الكتاب ضد فاروق وظللت أجيب يا ريس فاروق حسني صديقي ومش حأكتب حاجة ضده.. وحاول البعض ممن شهدوا هذا التحريض المتكرر تفسير الأمر بتفسيرات لم اهتم بها.

واستخدم مبارك ذات الأسلوب معي عندما حاول أن يتحسس موقفي إزاء توريث جمال.. فسألني أكثر من مرة "بيقولوا أني عاوز أورث جمال" وكنت أجيب بإجابات غير واضحة ولكن فيها من الرفض أكثر ما فيها من قبول مثل "خليهم يقولوا" المهم حضرتك حتقول إيه؟" وأكثر من مرة لم أجب بنعم، ولا .. ففاجأني يوم احتفال بعيد من أعياد الشرطة وفيما نغادر صاح في.. يا رفعت يا

زئبقي واقتربت وحاولت أن اشرح موقفي ووجدت نفسي أتقارب فأضع يدي علي كتفه وهنا انقض حبيب العادلي ليزيح يدي من علي كتف الرئيس فالتفت اليه الرئيس سيبه مفيش حاجة لما يحط ايده علي كتفي.. ثم قال ابعد عنه ده زئبقي ولا يمكن تاخد منه جواب صريح.

وفي يوم أحسست (وهذا مجرد إحساس) أن مبارك ضاق ذرعا بحلقة النار التي فرضها زكريا عزمي ليمنع اي اتصال بالرئيس عن غير طريقه.

فقد اتصل بي وزير الاعلام انس الفقي معاتبا علي مقالين نشرا بالاهرام (ولم أكن اعرف سر السماح بنشر مقالين متتاليين هاجمت فيهما احمد عز وقلت أن أنتخابات ٢٠١٠ هي الأسوأ في تاريخ مصر الحديث، وبعد المعاتبة التي تبدت في ثناياها ايماءات بالموافقة علي ما كتبت قال تعالي نكمل النقاش في مكتبي، وزرته فإذا به يفاجئني عايز تكلم الريس؟ وقبل أن اجيب نظر إلي ساعة الحائط وقال هو دلوقتي بيريح.. نشرب كمان قهوة ونطلبه، وسألته ايه المناسبة؟، فقال أبداً انا عايزك تشرح له موقفك، وتلاحمت علامات تعجب وقلت ممكن، ونظر نظرة اخري إلي ساعة الحائط ويبدو أنه توقيت متفق عليه مسبقا ونهض الوزير وادار رقما وطلب الرئيس مخترقا حلقة النار" أو بالدقة متعمدا اختراقها مستندا شكليا إلي شكوي مني وتحدث انس إلي الرئيس واستأذن ان اشرح وجهه نظري في الأنتخابات وتبدي مبارك ودودا واستمع إلي وجهة

نظري وقلت عبارة يبدو أنها متجاوزة وهي "أن الأمر يهدد مصداقية النظام ككل" فقال مبارك ضاحكا مش قوي كده".. وكنت وانا اتحدث اتابع حالة الارتياح الشديد علي وجه انس الفقي. وادركت ساعتها أن مبارك يحاول ان يقاوم حلقة النار التي يحكمها زكريا عزمي وجمال معا. أو هذا ما تخيلت.

***

والحقيقة أن مبارك كان يستمتع أحيانا بارباك رجاله حتي كبار كبارهم فأثناء زيارته لمجلس الشوري ليفتتح الاصلاحات بعد الحريق وفي الاجتماع تحدثت عن ضرورة الضرائب التصاعدية كسبيل لتحقيق تقدم جاد لمصر وكان رده "بيقولوا أن ده يطفش المستثمرين"، فقلت "طيب يقولوا هل فيه بلد مفيهوش ضرائب تصاعدية؟ مش حيلاقوا".. وفي نهاية الاجتماع وفيما الجميع يحيطون بالرئيس تقربا ناداني وأنتحي بي وسرنا معا بعيدا عن الجميع وهمس في اذني وهو يضع يده علي كتفي قائلا "خليهم يضربوا اخماس في اسداس بس أنت متقولش. وفيما يغادر صاح خلي بالك، اللي ضد الضرائب التصاعدية هيقطعوك، فقلت بصوت مرتفع انا مبخافش. ولزمن ظل صفوت الشريف وغيره من علْية القوم ينظرون إلي ويتودوون لكن احدا لم يتجاسر أن يسألني ماذا قال الرئيس وهو يضع يده علي كتفي ويتهامس معي.

***

ولعل كثيرين لا يعرفون أن مبارك لم يتبادل ابدا أي حديث مع البابا شنودة ولو بمكالمة تليفونية، ورغم علاقتي الوثيقة بقداسة البابا فإنني لم اسأله لماذا؟ خشية احساسه بأنني استثقل مهمة التواصل بينهما لكن احد الاساقفة قال "لسببين اولهما ان قداسة البابا حاول الاتصال من الدير لتهنئة مبارك بتوليه رئاسة الجمهورية فأبلغوه ان الريس سيرد عليه بعد فترة ولم يرد. والسبب الثاني أنه ظل مستمرا في احتجاز قداسة البابا بالدير لفترة طويلة بعد رحيل السادات"، والحقيقة أنني أنا شخصيا سألت الرئيس مبارك في مقابلة معه لماذا لا يعود البابا إلي ممارسة دوره البابوي فقال "أنتظر شوية لأني مش عايز مشاكل مع اللي بتسميهم أنت المتأسلمين" المهم وقعت مهمة التواصل بينهما علي عاتقي وكانت مهمة صعبة ولكنها مثمرة. وقد تواصلت العلاقات مفعمة بمحاولات تجنب التصادم.. وثمة نماذج .. ففي ذات يوم كلمني د. زكريا عزمي طالبا أن أزوره في مكتبه بقصر عابدين.. وقال لي: الدكتور زقزوق (وكان وزيرا آنذاك للاوقاف) كتب تقريرا للرئيس عن زيارة قام بها للنمسا، وهناك لاحظ حالة من الاحتقان وسط الاقباط، خاصة وأن إعدادا من مجلة الكرازة المرقسية كانت توزع عليهم حاملة شكاوي وحالات من الغضب القبطي"، وأضاف "الريس عايز يعرف ايه أهم طلباته وتحاول معاه وتراضيه. وفيما أغادر قال لي د. زكريا عزمي "لا تقول له أن الرئيس باعتك هاتها من عندك. وبالفعل زرت قداسة البابا في الدير وسألته عن الأحوال وكالعادة كانت هناك شكاوي

عديدة وقال "مثلا أنا طلبت كنيستين في الواحات وقالوا لي الرئيس وافق ولكن فاتت سنتين ولسه مفيش موافقة" وأنت عارف ان المسيحي لما يتولد بيتعمد في الكنيسة ولما يتجوز يتجوز في الكنيسة ولما يموت يصلوا عليه في الكنيسة" فتصور واحد يشيلوه وهو ميت علي حمار علشان يصلوا عليه في كنيسة الخارجه والمسافة من قرية موط للخارجه ٢٠٠ كيلو .وبعدها سألته فيه شكوي تانية ولم يجب. وسألت مثلا عايز محافظ قبطي فقال ده إذا كان مسموح لنا بمحافظ.. وهل لديك مرشح؟ فقال رتب الحاجات دي مع ثروت باسيلي. وفيما اغادر ناداني قداسة البابا وقال ضاحكا "زي ما قالولك متقوليش ان همه اللي بعتوك، أنا بأقول لك متقولش لهم أنني طلبت حاجة".

وعدت إلي د. زكريا حاملا الطلبين فتركني جالسا لفترة ثم عاد حاملا طلبا من الكاتدرائية مؤرخ منذ سنتين ببناء كنيسة في "موط" وتأشيرة الرئيس.. "لا مانع". وقال روح لحبيب العادلي وشوف معاه الموضوع ، وذهبت للعادلي وكانت التعليمات قد وصلته. فاتصل بمدير أمن الوادي الجديد الذي قال له "هم لم يحضروا أي عقد ملكية يثبت مليكتهم للأرض" وقلت يمكن الارض دي مملوكة للكنيسة من مائتي سنة وحتي النهاردة مفيش شهر عقاري في موط.. وشخط العادلي في مدير الامن اتصرف. وتصرف. وبنيت الكنيسة. اما المحافظ فقد رشح د. ثروت باسيلي طبيبا اسمه اكليمنديس وضحك د. زكريا معقول يبقي فيه محافظ اسمه

اكلمنديس؟ وكنت ادرك من البداية أن اي محافظ سيتم اختياره وفق معايير خاصة جدا.. ولن تكون باختيار الكنيسة وبالفعل تم اختيار لواء جيش مسيحي محافظا للأقصر.

ومن طرائف الوساطة التليفونية أن قال قداسة البابا وهو يضحك كعادته شاكيا.. "تصور فيه استاذ بكلية الطب يصمم أن يمتحن الطلبة الاقباط شفوي يوم عيد الميلاد المجيد" وأنه كان بيمتحن طالب مسيحي شفوي وسأله اسمك إيه فأجاب مجدي -مجدي ايه؟ ابراهيم- ابراهيم ايه؟ كامل- وضيق الأستاذ علي الطالب الخناق فاضطر أن يفصح عن اسم ابو الجد.. واجاب "بطاريس" فطرده الأستاذ قائلا "أنا بأسقط بطرس واحد، عايزني انجح بطاريس.. مرة أخري اقول أن قداسة البابا رواها كنكته وهو يضحك (لكنه ضحك كالبكاء) وحكيت القصة للرئيس تلفونيا فقال كلم حسين كامل بهاء الدين يشوف حل مع الأستاذ ده وبلاش امتحانات يوم عيد الاقباط. واتصلت بالدكتور حسين وكان آنذاك وزير التعليم والتعليم العالي فإعتذر قائلا: هذا الدكتور كان استاذي وفي الطب نحن نحترم الاقدميات وأنا لا استطيع أن اجبره علي شيء.

ونقلت الموضوع إلي د. زكريا عزمي..وبعدها بيوم كلمني وقال خلاص يا سيدي الرئيس سيصدر مرسوماً باعتبار 7يناير اجازة رسمية. وممكن كمان نعمل عيد القيامة اجازة. واتصلت علي الفور بقداسة البابا وكان سعيدا وقال لي ستذكر لك الكنيسة انك صاحب هذا العيد.. اما عيد القيامة فقد اعترض البابا قائلا هناك

خلافات حول موضوع القيامة بين الاقباط والمسلمين واتصلت بالدكتور زكريا فقال والله البابا طلع اشطر مننا.

ولكن ورغم كل محاولات مبارك إرضاء أو حتي استرضاء البابا فقد ظلت العلاقات غائمة بينهما وكأنها مهيأة لأن تمطر.. لكنها لا تمطر.

وذات يوم صدور الأحكام في قضية قرية الكشح اتصل مكتب البابا "قداسة البابا عايز يشوفك" وذهبت علي الفور لأجده غاضبا بصورة لم أره عليها من قبل وصاح وأنا داخل إلي مكتبه وكان محاطا بقيادات كنسية عديدة "روح قول له أن دم الاقباط مش ميه" قالها وكأنه يهدد وحاولت تهدئته وفشلت وغادرته وهو أشد غضبا مما كان في بداية اللقاء بعد أن تناثرت تعليقات ومعلومات من القيادات الكنسية الحاضرة.. وتحدثت إلي د. زكريا وبعدها طلبني الرئيس وقال قول للبابا أن النيابة ستطعن علي الأحكام (وكان اغلبها بالبراءة أو أحكام خفيفة بتهمة التجمهر أو احراز سلاح بدون ترخيص).. ولم يقتنع البابا وبالفعل تحق ما توقعه فقد جاءت أحكام النقض بتأكيد ذات الأحكام تقريبا ومرة أخري علق مبارك "نعمل ايه اذا كان ورق التحقيق بايظ"

وفيما كانت دماء الكشح لم تجف بعد كان هناك تجديد نصفي لعضوية مجلس الشوري وطبعا ستكون هناك تعيينات لأعضاء جدد وخطرت في بالي فكرة لإرضاء البابا فاتصلت بالدكتور زكريا وعرضت عليه فكرة أن يعين مسيحي من قرية الكشح في الشوري، وبعدها

بساعات اتصل د. زكريا سائلا صاحبك عنده اقتراح باسم معين ؟ وسألت صاحبي مين؟ قال البابا، قلت له البابا لم يطلب شيئا ولا أنا فاتحته خوفا من أن يرفض الرئيس هذا الطلب فتزداد الأمور تعقيدا. وصدر مرسوم التعيينات وبه اسم رجل أعمال مسيحي من قرية الكشح والمثير للدهشة أن جاء في نص المرسوم أمام اسمه وبين قوسين من قرية الكشح. وتصورت أن خطأ اداريا أبقي هذه العبارة مكأنها وفيما اتندر بذلك امام البابا اسند قداسته يديه علي العصا وقال في هدوء وكأنه يوجه كلامه إلي سقف الغرفة "ربما أراد أحدهم أن يسجل في وثيقة رسمية ما قد يهتم به البعض بعد سنوات عديدة".

ولعل من حق من يدرسون سيرة قداسة البابا شنودة أن احكي ما قد يوضح طبيعة مواقفه بشكل عام.. فقد كنت في زيارته في الكاتدرائية وكانت الغرفة مليئة بالآباء الكهنة من مختلف المراتب وعندما دخلت توقف المتحدث لكن البابا امره أن يكمل قائلا "أكمل ما كنت تقوله.. الدكتور رفعت حبيبنا والمطران كان قادما من ابراشيته في الصعيد وتفجرت كلماته شاكية من سوء المعاملة التي يلقاها رعايا كنائسه.. أنت يا سيدنا تأمرنا بالهدوء وكلما سكتنا ازدادوا هم تطاولا واضطهادا لنا، يا سيدنا نحن ابناءك وأنت لا تقبل لنا المذلة فإمنحنا الاذن بالاحتجاج. أنتهي المطران وظل البابا صامتا فصمت الجميع، وبعد فترة صمت قال قداسة البابا "ليس فقط لأن الرب يأمرنا" احبوا مبغضيكم وباركوا لاعنيكم" وإنما لا سلامتكم وحقوقكم في عنقي ومعها وفوقها سلامة مصر

واستقرارها . . فأنا اضع في الاعتبار ألا يتخذ أحد منا خطوة ينتج عنها دماء طائفية . . فتكون مصر في خطر" .

***

وفي المراحل الاخيرة من مرضه همس أحد اطبائه في اذني "قداسة البابا مريض جدا ، ويعاني من آلام لا تحتمل . . لكنه يخفي آلامه عن الجميع حتي نحن المعالجون له . وبعدها سافر البابا إلي كليفلاند حيث اعتاد أن يعالج فإتصلت به تلفونيا ورد علي أحد المرافقين وقال "قداسة البابا بخير ولكنه يستريح الآن . . وسمعت صوت البابا وهو يسأل بحدة مين بيتكلم؟ وقال " : فلان ، فصاح قداسته هات ، وحدثني متظاهرا بالضحك وقال أنا كويس وأول ما ارجع سأتصل بك" .

وبالفعل اتصل بي فور عودته وقال بصوت خفيض عاوز اشوفك . . وأحسست ولست ادري لماذا؟ بغيامة من الحزن فقد تلقيت اشارة ما . . أنه سيكون اللقاء الاخير . وأنتظرت دقائق تبدت طويلة جدا في مكتبه وأتي البابا محاولا أن يبدو متماسكا وهو ينتزع ابتسامة تأتي مرغمة وكما افعل دائما احتضنته ويبدو أنني اطلت فتخلص برفق . . وخوفا من أن ارهقه استأذنت سريعا ولم يمانع ووقف يودعني وادركت من همساته أنه الوداع الاخير . . وانسكبت إلي اذني انفاسه العطرة وهو يقول هامسا "خللي بالك من نفسك ومن صحتك وربنا هيحميك وانا حا أدعي لك باستمرار" واصطحبني كما كان يفعل دائما إلي الخارج وكنت احاول منعه لكن

صمم في وهن وأنا كنت بحاجة لأن ابقي معه اطول فترة ممكنة.. كنت دوما استعجل السيارة لكي لا يبقي قداسته واقفا بالخارج.. لكنني في هذه المرة تمنيت ألا تأتي السيارة.. واحسست أيضا أنه لا يلتفت إلي مسار السيارة وانما ينظر إلي متمتما -ربما بدعوات- وكان لابد للسيارة أن تأتي وأتت فاحتضنني فاحتضنته من جديد وقال "ربنا يحميك".. وبعدها بيومين كان رحيله.

***

جلسة الشوري الأخيرة

لعل الكثيرين لم يتصوروا أنها الجلسة الاخيرة بل لعلهم قد استعدوا لها كفرصة سانحة لسكب الكثير من النفاق عبر كلماتهم استعدادا لجني ثمار تخيلوها آتية. أما أنا فكنت قد توقعتها الاخيرة.. الميدان الصاخب والخيام الممتلئة وسيارات الشرطة المحترقة، أنها رائحة لا تخطئها أي أنف تمتلك بعضا من الحساسية، لكن وحتي الأحداث الجسام يختلف الكثيرون في قراءتها. القاعة أصبح شكلها مختلفا في عيني، حتي السعاة شكلهم تغير، تشابهاتهم تشابهت في صمت مكتئب هم صنف من الناس لا يمتلكون حتي القدرة علي النفاق.. هم فقط يمتلكون الطاعة الممتزجة بمرارة مستقبل ستأتي أيامه كغيرها مما سبقتها من أيام مريرة مفعمة بالفقر.. والفقر ليس مجرد احتياج لكنه للاسف يتحول في بلادنا بسبب من التفاوت الطبقي إلي مذلة أيضا. أعضاء الاغلبية يحاولون قد طاقاتهم المتفاوتة أن يتظاهروا باللاخوف

واللامبالاة . تجمع اغلبهم في غرفة زعيم الاغلبية لعلهم يلتقطون منه خبرا "يبل الريق" أو "يسقي بعضا من العطش"، أما الأمين العام المساعد اللواء رفعت مطاوع والذي كان دوما بشوشا وضاحكا وكانت ثلاجته مزدحمة دوما بمشروبات وزبادي ورز بلبن فقد كان هادئا بلا أي ابتسامات ولا حتي نطق ربما كان حسه المتقن قد منحه احساسا بأن الأمور إلي نهاية . .

ثم دخل إلي القاعة عديد من نواب الوطني ملتفين حول زعيم اغلبيتهم يتضاحكون ربما للايحاء بأن الأمور عادية . المتجهم صفوت الشريف اعلن افتتاح الجلسة لمناقشة الوضع السياسي الراهن" وأنا لسبب ما لم أدركه فيما بعد كنت ولأول مرة قد كتبت كلمتي وطبعت منها عشرين نسخة وقمت بنفسي بتوزيعها علي الصحفيين المتراكمين في شرفتهم . تحدث زعيم الاغلبية ومن معه من كبار كبار المهمين من الاعضاء . . ولا جديد حتي ذات الرطان الذي جري تداوله طوال فترة عبد الناصر . . وما بعدها وحتي ايام مبارك التي كانوا يتمنون استمرارها ابدا . . لكن هذا الرطان كان يفتقد ذات المذاق كالفارق بين ممثلين محترفين وبين تلاميذ هواة يتلون ذات النص دون اي اتقان . . نفس الرطان "ان ارادة الجماهير الشعبية تفرض علينا أن نمضي قدما لحماية مكتسباتها" ومثل "وأقول بكل الصدق أن هؤلاء الذين يسعون بالدمار لا يمثلون الارادة الشعبية"، وكثيرون آثروا الصمت فهم يخافون مجرد النطق في مناخ لا يعرفون منطقة ومكامن الخطر فيه . . ثم ممثلوا الأحزاب وكان كلامهم اكثر تزلفا

ونفاقهم اكثر افتضاحا وكان لابد للدور أن يأتي عندي.. وربما ادرك صفوت الشريف بخبرته أن كلمتي ستكون مختلفة ولعله قد عرف ببعض ما وزعته علي الصحفيين عبر ورقة رأيتها تتسلل إليه مع الساعي.. ألقي علي أثرها نظرة متفحصة نحوي ولعله أي شيء آخر لكنه نطق اسمي وبعدها مباشرة قال "الكلمة من الآن ثلاث دقائق" وكنت قد اعددت نفسي كي أكون هادئا فتقديري أن المناخ لم يكن يحتمل، لكنني وجدت نفسي أقول بصوت عال " ظللتم تتكلمون ثلاثين عاما.. والآن أنا اتكلم ثلاث دقائق.. لكنني لم اضيع وقتا في اللجاج فقلت عبارتين حملتا كل ما اريد قوله "من الضروري أن يقدم الامين العام للحزب الوطني إعتذاراً لجماهير الشعب الغاضبة علي كل ما كان في الماضي من اخطاء وفساد وإفساد وأن يتقدم ببرنامج جديد يستجيب لمطالب الميدان عيش- حرية- كرامة انسانية- عدالة اجتماعية" ثم عبارة اخري تقول أن نص الدستور يقول "يتولي رئيس الجمهورية السلطة التنفيذية ويمارسها" وبهذا فإن الرئيس يكون مسئولا عما تولاه وعما مارسه عبر السلطة التنفيذية.. حيث كانت عشرات من الخطايا وعليه أن يتقدم للشعب باعتذار واضح ومحدد.. وأن يستجيب لإرادته" وهنا صاح صفوت الدقائق الثلاث أنتهت وأغلق الميكروفون ونادي علي متحدث آخر.. اما أنا فقد جمعت اوراقي وخرجت دون أن التفت لأحد.. والمثير للدهشة أنني تلقيت لحظة خروجي تحيات وقبلات من السعاة والموظفين وحتي من اعضاء سبقوني بكلمات منافقة.

والآن هل يأذن لي القارئ أن أودع لديه، وأودع في هذه الاوراق التالية بعضا من فقرات كانت ستتلي في جلسة ٢١ يناير ٢٠١١ وهي الجلسة الأخيرة بالنسبة للاستاذ صفوت الشريف الذي منعني من تلاوتها وكانت جلسته الاخيرة فقد منع بعدها من أي فعل أو قول حتي قبض عليه وكانت بالنسبة لي آخر جلسة أنا أيضا امتنعت بعدها عن تقبل اية دعوات تتالت لكي اشارك أو اشترك فيما عرض علي من مواقع.. مكتفيا بما كان.

وهذه الفقرات وزعت علي الصحفيين وقدمت لأمانة المجلس لضمها إلي مضبطه الجلسة.. فهل امتلك أحدهم شجاعة اضافتها؟ لكن ما أنا متأكد منه أنها وعبر مسالك رسمية علنية وسرية وصلت إلي أيد عديدة رسمية وغير رسمية.. تعمل علنا أو سرا. لكن ما ادهشني بعدها أنني وجدتها قد تسربت عبر طريق ما ربما احد الصحفيين أو أحد الموظفين بالمجلس أو أحد من آحاد أخري إلي عدد من السفارات" فإذا كان ذلك كذلك فالاولي أن تودع لدي القارئ.. ولدي التاريخ.

ونتابع ما أتي في هذا البيان من عبارات معتذرا لأنني كتبتها منفعلا خلال الربع ساعة الاخيرة قبل الجلسة وقمت فورا بتصويرها وتوزيعها.. دون مراجعة أو تدقيق أو اتقان.

مقتطفات من كلمة د. رفعت السعيد
رئيس حزب التجمع في مجلس الشوري
يوم ٣١ يناير

* كنت أتمني علي السيد الامين العام للحزب الوطني أن يبدأ بتقديم اعتذار للشعب علي سوء اداء الحزب وحكومته خلال السنوات الماضية وهو أداء إتسم بالفساد والإفساد والذي كان سببا فيما وصلنا إليه.

* إن مثل هذا الاعتذار لا يحمل فقط معاني احترام الرأي العام وإنما الأهم هو الالتزام بسياسات جديدة مغايرة تماما.

* لعلكم سمعتموني في المجلس الموقر في العام الماضي وانا اصرح "احذروا غضبه الجياع" كررتها ثلاث مرات لعلها تخترق آذانا لا تسمع إلا نفسها ولو كنت كررتها ثلاثين ألف مرة لما سمعوا فقد كان البوم الناعق بخراب البلد جالسا امامي في مقاعد الوزراء ليبرر ما لا يمكن تبريره ولم يكن الأمر غباء وانما كان ولاء لكبار كبار الأغنياء وربما ولاء لسياسات مخططه للوصول إلي ما نحن فيه.

* كنموذج واحد كنا وحدنا نصرخ فيكم بضرورة فرض ضرائب تصاعدية فكان الرد أن المستثمرين سيطفشون. فماذا كانت النتيجة؟ تلفتوا حولكم وتعلموا نتائج سوء الاداء وسوء الافكار.

* وفي المجال السياسي ظللتم تتحصنون بحالة الطوارئ بحجة الحفاظ علي الأمن.. فأين الأمن؟.. أن هذا درس لمن يريد أن يتعلم من دروس يمليها الشعب.

* أسأل .. واطلب من الحكومة الجديدة أن تحقق علي الفور وتحدد وعلنا المسئول عن انسحاب الشرطة من اداء مهامها في أحرج اللحظات واطلب التحقيق فيما اكده سجناء هاربون من أن بعضا من الضباط اطلق سراحهم وحرضهم علي التخريب . وأسأل هل في الأمر مؤامرة واسأل من ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟

* لقد طالبنا عشرات المرات بالاطاحة بالوزارة السابقة .

نصحتكموا أهلي بمنعرج اللوي

فلم تستجيبوا النصح إلا ضحي الغد . أي بعد فوات الأوان

* وأسأل هل كان الابطاء في الاستجابة حتي عندما التهبت الأحداث صائبا .

أقول لا .

* لقد طالبنا وتطالب معنا الجماهير بتغيير جدي فلا تتصوروا أن الناس ستكتفي بتغيير اسماء بأسماء ولا مؤسسات بمؤسسات وإنما هي تريد ونحن نريد معها تغيير سياسات في مجملها فاسدة ومفسده وعملت فقط علي خدمة كبار الأغنياء وافقار الفقراء وتريد الالتزام الحازم والعاجل بسياسات جديدة تماما تستهدف خدمة الشعب وتلبي مطالبه .. كل مطالبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

تلبيها الآن وفورا .. اليوم وليس غدا !

فغدا يكون قد فات الأوان .

* ويجيئ خطاب التكليف الرئاسي للوزارة الجديدة متأخرا كالعادة ويأتي غامضا ومرددا ذات العبارات التي سمعناها طوال

ثلاثين عاما عن الاهتمام بمحدودي الدخل والعدل الاجتماعي ومواصلة الاصلاح السياسي.

أصارحكم أن هذه العبارات لن ترضي الجماهير ولن تحل أي مشكلة. فلو راجعنا عشرات الخطابات السابقة لوجدنا ذات العبارات تقال لتنسي علي الفور ودون أن تجد طريقها للتنفيذ ولو بأقل قدر.

أن المطلوب هو الاستجابة الفورية لمطالب محددة وعاجلة. وإليكم مجرد أمثلة.

أن يعلن رئيس الوزراء المكلف وفورا بالتزامه بفرض ضرائب تصاعدية علي كبار كبار الاغنياء يصل حدها الاقصي إلي 40%من اجمالي الارباح التجارية والصناعية.

* أن يعلن التزامه بالمبدأ القانوني "الغش يبطل التصرفات" ومن ثم فإن كل التصرفات التي قامت علي أساس نهب ثروات وأراضي وممتلكات الدولة والتي منحت مليارات لا حدود لها للمقربين والاقربين، هذه التصرفات قامت علي غش وفساد وإفساد، ومن ثم فهي ومهما طال عليها الزمن باطلة ويجب أن تستعاد لتعود إلي ملكية الشعب.

* أن رفع الحد الأدني للأجر إلي ١٢٠٠جنيه يبقي التزام معلن وعاجل أقصد عاجل جدا.

* الغاء حالة الطوارئ.

* الالتزام بقانون جديد للأنتخابات علي أساس القائمة النسبية.

* الالتزام بلجنة للاشراف علي أنتخابات برلمانية صحيحة وخالية من الغش والتزوير. وتكون ذات سلطة وسلطان حقيقيين.

* أن يكون ترشيح الرئيس لمرتين فقط.

* الالتزام الكامل باحكام القضاء ازاء العملية الأنتخابية ومنع اي انفاق مخالف للقانون وأي تحيز لمرشحين بعينهم لأنهم ينتمون للحزب الحاكم.

* تقليص سلطات رئيس الجمهورية.

والمطالب عديدة.. كثيرة وحاسمة وحتمية.. و المهم أن تنفذ فورا .. أكرر فورا.

تبقي كلمة أخيرة اوجهها لسيد الرئيس.. الدستور اعطاك الحق في أن تتولي السلطة التنفيذية وتمارسها.. تتولي.. وتمارسها.. فهل تقول للشعب كلمة عما كان وعما سيكون، وهل تقول لنا هل سترشح نفسك في الأنتخابات القادمة. حتي يمكننا أن نحدد موقفنا إزاء ذلك.

أقول أخيرا الشرطة لم تنزل بعد.. والطعام ينفذ من الأسواق وكذلك الدواء فتحركوا فإن لم ترحموا شعبكم فارحموا انفسكم من غضب اشد.

اما رئيس الوزراء الجديد فأقول له وبصراحة أما أن تلبي مطالب الجماهير فورا وبصراحة وبلاغموض.. اكرر فورا وليس غدا..واما سيكون قد فات الأوان .

أخيرا.. أقول لكم ولحزبكم والحكومة والسلطة.

أنتم بأيديكم جرحتم قلبكم

وبكم اليكم جاءت الآلام

وما بين مقاربات مبارك
ومقاربات المشير
صفحات مع عمر سليمان

وعمر سليمان الذي كانوا يسمونه في الصحافة الغربية رجل المخابرات الغامض وأحيانا "القوي" شخصية فعلا تليق بهذا الاسم. فإذا كان الكثيرون قد قرأوا كتبا ومقالات وشاهدوا مسلسلات عن صراعات مع المخابرات الإسرائيلية حققت مخابرات عمر سليمان نجاحات مبهرة فيها فما أن جلست إليه في المرة الأولي حتي تصورت أن كل ما قرأت وشاهدت وسمعت قد تجمع ليتركز في هذه الشخصية الهادئة جدا والوديعة جدا والتي تتأمل ملامحه فلا تجد فيها أية تضاريس فقط وجه أملس يشبه أوجه القاده الرومانسيين وعينان بلا عمق، ربما لأنهما بئران عميقان تحتويان من الهدوء ما يخيف الناظر إليها.

وكان اللقاء الأول عندما أتاني عم عبدالعليم الساعي المسئول عن فتح واغلاق ونظافة مقر الاهالي القديم في شارع عبد الخالق ثروت ليبلغني أن شخصين تلقفاه في الشارع أمام فوهة المبني حيث المقر وببساطة قالا له "عايزين مفاتيح الاهالي لنصف ساعة لنعمل نسخة منها . . فلما رفض قالا أنهما من "المخابرات العامة" وسألهما كيف يعرف آنهما من المخابرات؟ قطع احدهما ورقة من مفكرة صغيرة في جيبه وكتب رقمي تليفون أرضي وطلب منه أن يطلب اي رقم منها ويطلب مكالمة المهندس فلان وسيرد عليه احدهما . . فراوغهما حتي الغد . . وأتي إلي في في مقر الحزب وأخذت منه الورقة الصغيرة، ومن عم عبد العليم إلي غرفة الأستاذ خالد واقترحت دون أي فطنة أن يطلب عبد العليم احد الرقمين ويحدد معه موعدا واذهب انا معه لألقنه درسا . وصمت الأستاذ خالد ليلقنني بعدها درسا لا ينسي إذ قال تعلم ألا تلاعب النمر، "فالنمر مستفز بطبعه" وكان عم عبدالعليم قد توجه مع محامي الاهالي بطلب من مسئول إداري في الجريدة إلي مأمور قسم عابدين . . وبدأ المأمور بحيوية دافقة في تحرير محضر ضد . . . . ثم ما أن سمع اسم "المخابرات العامة" حتي ارتعب واتصل بمسئول ما . . وأنتهي الأمر برفض تحرير المحضر. وقال روحوا للنيابة وتفلسف أحد مسئولي الأهالي وقال لنذهب إلي النائب العام. لكن الأستاذ خالد علمنا ألا نلاعب النمر، وادار قرص التليفون ليطلب من سويتش مجلس الوزراء رقم الوزير عمر سليمان، وطلب موعدا معه له ولي. كان

الرجل كما توقعنا يمتلئ بهدوء ودون ترفع، ثقة في نفسه ويتلاعب بابتسامة تبقي كما هي لكنها تحمل في كل مرحلة معان متعددة.. وكنا نعرف أنه يعرف سبب الزيارة. ان لم يكن من احد رجاله فمن المسئول الذي حدثه مأمور قسم عابدين. قال الأستاذ خالد بعد أن روي القصة ثم اضاف وانا شخصيا اعتقد انكم لا تحتاجون إلي المفاتيح فأنتم تستطيعون الدخول حتي من تحت عقب الباب فإتسعت الابتسامة وقال "مش للدرجة دي" وحاولت أن اتكلم فأدار الوزير الكرسي المريح والمتحرك بمجرد إلتفات من يجلس عليه.. وقال "يا دكتور.. هو مقر الاهالي فين؟ قلت في عبدالخالق ثروت.. وده فين؟ فأجبت (وأنا اعرف نهاية هذا الاستجواب البدائي) في القاهرة. والقاهرة فين؟ وأجاب هو علي نفسه عندما لاحظ انني مستاء من بدائية الاسئلة فقال القاهرة في مصر واحنا نشاطنا مقصور فقط علي خارج مصر. وفيما احاول الرد سبقني الأستاذ خالد الذي يعرف اكثر من فنون التعامل مع مثل هذه الحالات فقال بهدوء لذيذ يبقي حضرتك تسمح لنا نبلغ النيابة لأن الاثنين دول ممكن يبقوا نصابين أو لصوص أو مخابرات اجنبية. وهكذا تصادم هدوء مع هدوء. لكن الوزير افلت متسائلا "هي الورقة دي فين؟" واخرجت الورقة من جيبي فأخذها وتأمل رقمي التليفون وقلت وأنا مغتاظ أنا لم اطلب أي نمرة منهما لكي لا أحرج أحدا، وممكن حضرتك تطلب نمرة منهم دلوقت؟ فرد هادئا "مالوش لازمة". ووضع الورقة علي مكتبه. وشربنا القهوة وسلمنا وانصرفنا دون أي

كلمة وكان الأمر قد أنتهي. ولم أجد كلمات تفسر هذه الواقعة حتي الآن.

وبعد سنوات كنت في زيارة للكويت ضمن وفد لمجلس الشوري برئاسة د. مصطفي كمال حلمي. وكان أحد اعضاء مجلس الأمة الكويتي مسئولا عن مصاحبة الوفد واسمه الخرينج. واخذونا إلي زيارة مقررة لكل الضيوف آنذاك حيث معرض أو متحف تعرض فيه صور لعشرات ممن يسمونهم الاسري الكويتيين الذين اختطفهم العراقيون خلال انسحابهم، صور لرجال -شيوخ كبار السن- شابات وشباب وحتي اطفال وفيما يلفنا جميعا غيام من الحزن سحبني الخرينج من يدي (وكان أيضا احد المسئولين في لجنة الدفاع عن الاسري) وسألني هل صحيح أنك صديق لشخص يدعي عبد الله حوراني؟ فقلت صحيح وهو صديق عزيز ورجل محترم.. فقال طبعا طبعا وكفاية انك صديقه.. وفي المساء دعيت إلي لقاء مغلق ضم الخرينج وشخصين آخرين وطلبوا مني ان ارتب لهم لقاء مع حوراني فهو وفق تعبيرهم "واصل لكبار في القيادة العراقية ، ونريد وساطته للتفاهم حول مطالبهم مقابل اعادة الاسري". (وأود أن اؤكد أن كل من التقيناهم في الكويت من مسئولين وكبار مسئولين واشخاص عاديين كانوا يتحدثون بثقة كاملة عن وجود هؤلاء المختطفين عند العراقيين يتخذون منهم رهائن كي يسلموهم مقابل ثمن، وكانوا مستعدين لدفع الثمن) واقترحت عليهم أن نلتقي في القاهرة (وكانوا قد اقترحوا ترتيب لقاء علي حسابهم في أي مكان في العالم لكنني قلت لا أريد أن يتصور أحد أننا ننغمس في ترتيبات سرية وانا

شخصيا لا دخل لي في الأمر) واتفقنا علي أن اتصل بهم فور اتخاذ ترتيبات المقابلة. وفي الطائرة جلست إلي جوار د. مصطفي كمال حلمي.. وابلغته الأمر فقال نسأل الوزير عمر سليمان هل تتدخل أنت في هذا الأمر أم لا؟ وفور عودتنا للقاهرة وفيما يبدو أن د. مصطفي كان متعجلا فوجئت بمكالمة مباشرة (دون مرور عبر السكرتاية) من الوزير عمر وكان ودودا وحكيت له الحكاية. فقال الحقيقة أن معلوماتنا تقول أن مفيش اسري ولكن طالما هم طلبوا مساعدتنا .. ساعدهم قدر استطاعتك.. وتابع معايا باستمرار. واتصلت بعبد الله حوراني وقلت كلمة واحدة "عايزك" فسأل ليه؟ قلتَ لما تيجي. قال امتي؟ قلت بكرة واتفقنا علي موعد بعد بكرة واتصلت بالخرينج وجلسنا ثلاثتنا في نادي السيارات..وما أن سمع عبد الله حوراني الموضوع قال "الحقيقة أنا لا اعرف هل هناك اسري أم لا لكنني كمسجون سابق اعرف أن في كل سجن ملاك أو مرتشي يمكنه أن يسرب أخباراً من داخل السجن عنهم. فقلت ارجوك حاول أن تسأل، قال سأحاول واعتقد أن من يمتلك الحقيقة في هذا الأمر هو طارق عزيز فقلت أنت تعرف أنه صديقي فإنقل له رجائي. ولأن الأمر قد يتطلب ترتيبات متعلقة بالسفر والمواعيد والتكاليف وكيفية التواصل استأذنت وتركتهما معا. وبعدها بعدة ايام عاد عبد الله إلي القاهرة، ونقل لي رسالة من طارق عزيز يؤكد فيها هو شخصيا إلي انا شخصيا أنه لا يوجد اسري. وان التعليمات هي عدم نفي وجود اسري ليبقي الأمر محلا للمساومات. وسألته وما ستقول للخرينج عندما تقابله (وكنا رتبنا مقابلة لم اسأل عن تفاصيلها..

لأتباعد عن الموضوع) فقال طلب طارق عزيز ان ابلغه "ان العراقيين يقولون أن هذا الأمر ليس محل نقاش الآن".

وبعدها بنصف ساعة اتصلت بعمر سليمان فوجدته يقول "لم أكن أعرف انك صديق لطارق عزيز إلي هذا الحد".. وسألته: المهم انا مش عارف ماذا سأقول للخرينج إذا سألني فقال اترك هذا الأمر.. وحوراني سيبلغهم برد طارق عزيز.. وتركت الأمر.

***

وتمضي سنوات عدة وفي بدايات أحداث يناير أو منتصفها زارني واحد من رجال المخابرات قائلا معالي الوزير عاوز يقابلك والتقينا في مقر رئاسة مجلس الوزراء واكتشفت أن له مكتباً هناك وسكرتارية وترتيبات أمنية خاصة به، استقبلني الوزير مرحبا موحيا للجميع أننا أصدقاء قدامي. وسألني ما رأيك؟ وقلت رأيي بغاية الصراحة هو بماثل ماذكرته في صفحات سابقة في كلمتي أمام مجلس الشوري في جلسة ٣١ يناير بعد تهذيب لغتها وازدادت سخونة مع سخونة الأحداث. وقلت احذروا من الهروب إلي الامام فهو لا يجدي، وكلما طالت المراوغة تصاعدت مطالب الجماهير ولابد من حل جذري فسألني يعني ايه جذري؟ قلت يعني جذري أي القبول الفوري لمطالب الميدان (عيش- حرية- عدالة اجتماعية- كرامة إنسانية) والاطاحة برؤوس الفساد الذين هم تحديدا رؤوس النظام وأن يعترف الرئيس بمسئوليته عما كان من أخطاء وان يؤكد صراحة أنه لا توريث، وأنه لن يترشح في الدورة الأنتخابية القادمة

لا هو ولا جمال.. انصت بلا مقاطعة وقال للرجل الجالس معنا ليسجل كل حرف قلته ابعت لي المحضر فورا. ثم قال "أنت مش ملاحظ انك سخنت عن الورقة اللي فاتت". فقلت لأن احدا لم يستمع والتهبت الدنيا فالتهبت المطالبة.

.. ولكن ما هي الورقة اللي فاتت؟

ففي يوم الاحتفال الاخير بعيد الشرطة وقد حرص مبارك علي اقامته قبل ٢٥ يناير بعدة ايام.. وبعد الاحتفال كان هناك عمر سليمان وحوله كالمعتاد لفيف من ذوي المصالح والمنافقون وهو يحاول أن يتخلص منهم بصعوبة ولكن بهدوء ومرونة رآني فإقترب مني وسألني ايه رأيك؟ فقلت "مش مرتاح" فقال حأكلمك النهاردة، وركب سيارته مسرعا.. وطبعا السيارات طبقات فسيارات الحاضرين تأتي حسب المراتب الأهم، فالمهم.. أما امثالي الذين لا هم أهم ولامهم فسيارتي تأتي في آخر الصف. وفي السيارة تلقيت مكالمة من ذات السكرتير تقول معالي الوزير عايزك تكتب رأيك واقتراحاتك كاملة وبأقصي سرعة "فقلت يعني بكرة مثلا؟ فأجاب لا حالا، فقلت مش معقول. وقال"اللي مش معقول أننا نتأخر عن كده". وطلبت من السائق أن يسرع قدر ما يستطيع وعندما وصلت كان ثمة شخص يجلس مع الحرس الخاص بالمنزل، وسألت مين ده؟ فقال أنا يا افندم من المخابرات العامة ومنتظر الرسالة اللي حضرتك حتبعتها لمعالي الوزير. وكانت ليلي تنتظرني لنتغدي معا فحكيت لها الحكاية وجلست فورا لاكتب

بعد أن سلمتها التليفون طالبا ألا ترد علي أحد. وكتبت بسرعة.. كتبت.. وكتبت، ولست اعتقد ان بالإمكان ان اتذكر ما كتبته بالضبط. ولكنني كتبت في محاولة شديدة الصعوبة تحاول أن تختصر ما لا يمكن اختصاره، وان تقول الحقيقة كما هي ولكن دون أن تدفع مبارك إلي المعاندة، فأنا اريد أن أكتب كلمات صريحة ومحاذرة محاولا أن اتعامل مع مبارك الذي أعرفه دون أن ادفعه إلي القاء الورقة جانبا ومما اذكره أنني كتبت "ثمة شلة تحاصر اتخاذ القرار" وقد علق عليها الوزير قائلا (حلوة حكاية شلة تحاصر اتخاذ القرار دي) وقلت "الغضب موجود ومشروع ويجب ألا نستخف به بل يتعين تقبله والتعامل معه بذكاء.. واقترحت حل لجنة السياسات واعادة تشكيلها بعيدا عن ذوي المصالح، وجازفت فطلبت ان يعلن الرئيس أنه لن يترشح في الأنتخابات الرئاسية القادمة كما أنه لن يترك الاختيار للمكتب السياسي للحزب وانما سيفتح باب الترشيح علي مصراعيه (وأيضا لاحظ عمر سليمان عبارة علي مصراعيه وعجبته) وان تجري الأنتخابات الرئاسية شفافة تماما وان يعلن الرئيس قبل ٢٥ يناير (كنا يوم ٢٢ أو ٢٣) هذه القرارات مصحوبة بتعديل وزاري جدي وتعيين شخصية تحترمها الجماهير كرئيس للهيئة البرلمانية للحزب.

وبعد ٢٥يناير ومع أول لقاء مع عمر سليمان بعد ٢٥يناير سألته عن مصير الورقة فتذكر من عباراتها ما ذكرت وبعض عبارات اخري وقال أنه سلمها بنفسه لمبارك وقال "لقد دهش الرئيس دهشه

بالغة ممزوجة ببعض الغضب وبعض التأمل ثم أعادها إلي المظروف ووضعه علي المكتب دون أن يعلق.

وبإمكان القارئ أن يلاحظ الفارق بين ورقة ما قبل ٢٥ يناير ومحضر ما قلته بعدها وهو فارق لخصه عمر سليمان لي "الأولي لاصلاح الصندوق والثانية من خارج الصندوق تماما".

***

ونعود إلي ما بعد المقابلة التي أجرها عمر سليمان معي بعد 25 يناير وسجلها مساعده كتابة (وطبعا صوتا وصورة).. ففي اليوم التالي دعيت إلي اجتماع مع عديد من رؤساء الأحزاب الكبيرة والصغيرة ومع حضور لافت للاخوان والنور، وفيما اتجه إلي المكان المحدد لي همس (الرجل اياه الذي اعتقد أنه كان مديرا لمكتب الوزير لأنه كان يرافقه في كل اللقاءات) همس في أذني قائلا "معالي الوزير يرجوك أن تخفف قليلا من المطالب حتي يمكن عرضها علي الرئيس ومناقشته فيها". وكان ترتيب الجلوس مثيراً لدهشتي ومخاوفي فمقعد الوزير في الصدارة وأنا مباشرة إلي يساره وحسام بدراوي (الذي اصبح أمينا عاما للحزب الوطني) علي يمينه وعلي يساري كان د. سعد الكتاتني (النجم الإخواني الذي صار لامعا هذه الايام ربما لاخفاء النجوم الاصلية) وعلي يمين بدراوي د. سيد البدوي (الوفد) ثم مزيد من الدهشة فبعد أن تحدث الوزير بكلمة قصيرة رحب فيها بالحضور وسأل نريد أن نعرف رأيكم؟ قال نبدأ بالدكتور رفعت السعيد وتكلمت فقلت تقريبا ما قلته في المقابلة

السابقة مع الوزير والذي سجله مدير مكتبه وقد خففت قليلا جدا من بعض المفردات لكن الجوهر بقي صادما كما قلته.

ثم كانت الدهشة الأخيرة وهي أن المتحدث الذي بعدي وكان د.حسام بدراوي قال بوضوح أنا متفق تماما مع كل ما قاله د. رفعت السعيد.. ثم تتالت الكلمات بعد أن خيمت غلاظة التعبيرات التي سقتها والتي تلبست مطالب صارمة وصادمة. لكن ما كان صادما هو ان بيانا صدر رسميا عن الاجتماع لم يعبر ولو بأقل قدر عما قيل وانما عبارات مسطحه ومتجاهله لما هو هام.. واتصلت بمساعد الوزير أو مدير مكتبه وكنت غاضبا.. وقلت هذه هي المرة الاولي والاخيرة التي احضر فيها اجتماعا كهذا.

وأود هنا أن أصارح القارئ فأقول أنني اولا صدمت في الوزير عمر سليمان الذي تبدي اكثر من مرة مختلفا أو محاولا لأن يكون مختلفا، وانني ثانيا كنت قد استربت في هذا الاهتمام المفاجئ بي وخشيت أن يكون ترتيبا لاستخدامي في موقع ما.. وكنت قد حسمت الأمر انا وليلي وهو انني لن اقبل أي موقع رسمي أو غير رسمي كبيرا كان او صغيرا وأنتهزت هذه الفرصة لأشهر انسحابي) لكن الرجل قال لي تعالي بكرة الصبح قابل معالي الوزير.. فقلت لن احضر قال ارجوك اللقاء سيكون مهما.. مهما جدا.. ووافقت وانا مستريب. وكان الموعد العاشرة صباحا. وبعدها دعيت إلي مقابلة تليفزيونية في صباح الغد أي ذات يوم المقابلة المبكر (برنامج صباح الخير يا مصر) وفي طريقي مررت علي المقر المركزي للحزب

فسمعت خبرا صادما منذ دقائق استشهد احد شباب حزبنا في التجمع برصاصة في ميدان التحرير، وفي الطريق سمعت طلقات رصاص وتلقيت عبر التليفون معلومات بمزيد من الشهداء وحسمت امري نهائيا. وعندما بدأ التصوير ودارت الكاميرات قلت لمقدم البرنامج لدي خبر عاجل وهام هل تسمح لي أن ابدأ به فقال تفضل.. وقلت "سبق أن حددوا لي موعدا الساعة العاشرة أي بعد ثلاثة ارباع الساعة مع السيد عمر سليمان نائب رئيس الجمهورية وفي طريقي شاهدت وسمعت مذبحة في التحرير وشباب يجري اغتيالهم وسمعت نبأ استشهاد أحد شباب حزبنا وانا لا أقبل علي نفسي ولا علي حزبي ولا علي تاريخي أن اتفاوض في ظلال هذه الاغتيالات، ولهذا فإنني ابلغ السيد عمر سليمان علي الهواء وامام المشاهدين جميعا "يا سيادة النائب لا تنتظرني. فقال : مقدم البرنامج (الذي اشار الي باصبعه بعيدا عن الكاميرات بتأييد موقفي) لماذا لا تذهب وتتفاهم وتقول ما تريد؟ فقلت أن ضميري لا يسمح لي بأن اتفاهم بينما الرصاص يحصد ارواح الشباب. وفيما اتحرك بالسيارة مغادرا التليفزيون.. اتصل ذات الرجل قائلا "للاسف كان الاجتماع مهما جدا" فقلت "لا يوجد اهم من دماء الشهداء. واتجهت بالسيارة إلي مجلس الشوري لأسمع هناك أن تشكيلا وزاريا يجري ترتيبه وحمدت الله ان نجاني من هذه المقابلة.

وكان هذا هو اخر عهدي بالمقاربة مع صقر المخابرات المصرية العتيد.

وقبل المقاربة مع المشير
كانت مقاربات مع رجاله

بعد رحيل مبارك إلي شرم الشيخ بيوم أو يومين تلقيت مكالمة لمقابلة مجموعة من أعضاء المجلس العسكري. كانوا خمسة من اعضاء المجلس. اللواءات محمد العصار- محمود حجازي- ممدوح شاهين- عتمان -محمد عبدالفتاح السيسي. وقد استقبلت بمودة من الجميع وقدم كل منهم نفسه ووضعه في الجيش واعطاني بطاقته وعليها ارقام التليفونات ثم اضاف إليها رقم الموبايل بخطه، أما اللواء السيسي فقد قدم مبتسما بطاقة ذات لون مميز (بيج غامق قريب من اللون الذهبي) وقرأت عليها "لواء ا.ح. عبد الفتاح سعيد السيسي مدير المخابرات الحربية والاستطلاع.. وفقط ولا ارقام تليفونات.

وفيما اتقارب مع القارئ بما تقاربت به معهم اعتذر مقدما أنني لن اقول كل شيء، سأحكي ما دونت بعد الجلسة من نقاط متعجلة.. ولكن سأمتنع عن ذكر معلومتين لأنني اعتدت ألا اثرثر بما سمعت من معلومات لا يحب اصحابها أن تقال. وفي البداية تلقيت ما قد يبدو تحية غير متوقعة من اللواء محمد العصار الذي قال "كنت اقرأ مقالاتك في مجلة الطليعة وانا طالب في الاعدادية". وبدأت بأن اوجه التحية موجزة فهم الآن اصحاب سلطان وقد يعتقدون أو لعلهم بدأوا يعانون من موجات نفاق.. وحذرتهم انني سأتكلم بصراحة ولن اجامل وأكدت أنني لا أريد شيئا ولن اقبل شيئا وبدأت بأنتقاد موقفهم من الإخوان فقد ترامت روائح تقارب معهم، وقلت لهم بيت شعر..

إذا جئت فإبعث طرف عينك نحونا

لكي يعرفوا أن الهوي حيث تنظر

وحذرت من أن رائحة التقارب مع الإخوان ستنعكس علي المناخ العام ، كما أن هذا التقارب خطير لأن الإخوان لا عهد لهم ولا يحترمون وعدا ولا صداقة ثم سألت أنتم جميعا لواءات لكن من الاقدم فقال اللواء محمود حجازي أنا، قلت أريد أن استوضح منك بعض المواقف، فرد قائلا : في العسكرية عندما نتحدث مع مدنيين يبدأ الاحدث بالكلام لأن الاقدم إذا تكلم لا يجوز للاحدث منه أن ينتقده أو يشرح ما يقصده أمام المدنيين.. واللواء السيسي الاحدث وسيتكلم..

وأشهد أن اللواء السيسي قد تكلم بكفاءة وهدوء وبكلمات دقيقة لا تحتمل التأويل وشرح كل ما كان. ولست اريد أن اطيل في تقييم كلماته لكي لا يتصور البعض أنني اتعمد الآن مديح من اصبح رئيسا. واذكر أنني سألته "الستم جيشا منظما؟" فقال السيسي "منظم جدا". وسألت فما معني أن تتمخطر إحدي الدبابات ومكتوب عليها يسقط مبارك بينما كان مبارك لم يزل رئيسا ولم يتنحي؟ فقال كانت رسالة.. لمبارك وللميدان ولكم وللامريكان تحدد موقف الجيش. ثم سألني هل رأيت الدبابات التي احتشدت أمام بيته يوم سفره لشرم الشيخ؟ قلت نعم. قال هل لاحظت اين تتجه مدافعها؟ فقلت لا. قال كانت المدافع موجهه إلي بيت الرئيس وهذا لا يعني أننا كنا سنطلقها علي المنزل وانما هي اشارة يفهمها العسكريون ومنهم مبارك ويفهمها من يتحسسون موقفنا من مبارك في هذ اليوم. ثم فاجأني بسؤال لم اتوقعه. ماذا سنفعل بمبارك؟ وكيف ستنصرف معه؟ ومضي قائلا نحن نحترم وضعه فقد كان قائدا اعلي لنا، ونحترم دوره في حرب اكتوبر ونحترمه ككبير لنا، فقلت اتركوه يسافر من شرم الشيخ إلي السعودية.. فقال بصوت ارتفع لأول مرة "مش راضي". مصمم أن يبقي قائلا أنا لم اتعود علي الهروب ولم ارتكب أي خطأ ولن اترك مصر. (واستأذن القارئ في أن ابدي دهشتي وأسأل نفسي هل كان مبارك واثقا تماما من نظافة ذمته المالية.. ومن انعدام مسئوليته السياسية؟ حتي يعاند ويرفض السفر؟ والآن وقد استقرت البراءة

بأحكام نهائية وبأنها عنوان الحقيقة فهل كان علي حق في تشبثه بالبقاء؟ وان كل ما تبقي مما كان هو مجرد حاكم ظلم الشعب ثم شعب اطاح به وهذا حق الشعب لكنه ظلمه بعد ذلك؟ مثل هذه الأسئلة ستحتاج إلي محاسبة تاريخية له.. وللجيش وللشعب. لكنني أود أن أشير إلي انني وأن التاريخ سنقف متحيرين إزاء وقائع رأيناها وسمعناها دون أن نعرف لا كيف؟ ولا لماذا؟ ولا من فعلها؟ (أنها الألغاز المصرية العتيدة التي تفتح أمام السياسيين والمؤرخين والكتاب ابواب الاستنتاج والادعاء والاختراع المخادع) واعود إلي حديث اللواء السيسي الذي امتد لساعات واستدرجني أو بالدقة احتواني دون أن اشعر بأقل قدر من الملل فالمعلومات تتدفق بدقة محكمة ومرتبه والكلمات تأتي منه مدببة لترشق مباشرة في حقيقة حقيقية. واذكر أن اخر معلومة أنهي بها كلامه أنه قال "انا اؤكد أن قيادة الجيش موحدة تماما.. وقد عقدنا اجتماعا للمجلس الاعلي للقوات المسلحة دون أن نبلغ مبارك والمفترض أنه كان رسميا لم يزل رئيسا للمجلس بصفته قائدا أعلي.. لكنه عرف اننا مجتمعون فحضر أن الوزارة، وعرفنا أنه قادم فإنفض الاجتماع. والمشير استقبله وهو لم يفتح الموضوع ولا المشير فتحه" وقد استمر حديث اللواء السيسي عدة ساعات شرح فيها رؤية قيادة الجيش فيما كان قبل 25يناير وفي ما يجري في الميدان ورؤيتهم للمستقبل" وكان الفجر قد داهمنا والشرح كان وافيا.. وفيما اصافحهم طلب مني اللواء عتمان بعضا من كتبي عن الإخوان.. ثم تلي ذلك مطالبه

الباقين ماعدا السيسي فحتي الكارت ليس عليه عنوان ولا تليفون وهو لم يطلب.. وارسلت للآخرين الكتب وعندما التقينا مرة أخري سألت اللواء عتمان هل قريت في الكتب؟ فقال بصراحة صادقة "لم اجد وقتا" واضاف اسأل العصار هو اللي بيقرأ كثير.

وفي ظهر اليوم التالي لهذا اللقاء اتصل بي اللواء العصار الذي واصل بعدها التواصل معي باسم القيادة. قال العصار بهدوء كنت قاسيا امس في أنتقاداتك واكتفي واكتفيت. لكنني اجد لزاما علي أن اشير إلي أن اللواء العصار اثبت دوما سعة اطلاع ورؤية متعمقة وتفهما جادا لما يجري في ساحة الوطن وساحة السياسة وللاتجاهات والصراعات الفكرية في مصر.. وأن القادة الآخرين الحاضرين في الاجتماع كانوا غاية في التألق والموضوعية، وكان هذا اللقاء مجرد مقدمه للقاءات أخري.

ومقاربة مع الفريق

والفريق سامي عنان قائد عسكري مختلف فهو إذا أراد أن يتبدي بسيطا وإبن بلد.. فينادوني "يا بلديات" فالعائلة من قرية بجوار المنصورة وبيتها قريب من بيتنا في حي الحسينية في المنصورة، وهكذا يبتدئ الفريق بالتباسط.. بتروح المنصورة. شفت اللي حصل لبيتنا اتهد وراحت جنينته الجميلة وبنوا مكأنه عمارة.. اكشتفت أنه بسيط ومتباسط تم يعود في لحظة إلي سمته العسكري المحافظ ويختفي التباسط. وفي أول لقاء تم بدون مناسبة وحضره عدد من رؤساء وممثلي الأحزاب (غير المتأسلمة) سواء كانت كبيرة أو صغيرة أو حتي صغيرة جدا أو مجرد لافته. ولم اجد للاجتماع مذاقا محددا فهو بلا جدول اعمال وتركيبته بلا منطق واحسست أنه اجتماع استشكافي. ثم اتضح أن الهدف هو استطلاع رأي

الحاضرين في الاحجية التي فرضها الإخوان علي الجميع الدستور اولا أم الانتخابات ونحن ومعنا كثير من الأحزاب كنا قد اتفقنا الدستور أولا . لكن المفاجأة كانت موقف الدكتور نور فرحات والذي قصم ظهر المناقشة باقتراح سريع ومفاجئ، قال فيه "أنا ممكن اوافق علي اجراء الأنتخابات أولا بشرط وضع وثيقة فوق دستورية تحدد التوجهات العامة لحماية الديمقراطية وتضع الأسس الضرورية لارساء قواعد الدولة المدنية (ولست اعرف إذا كان الأمر مرتبا مع د. نور أو مع حزبه آنذاك الديمقراطي الاجتماعي أم لا) المهم أن الفريق تلقف الاقتراح بموافقة فورية والتفت إلي اسامة الغزالي قائلا جهز لنا بسرعة يا دكتور اسامة مشروع للوثيقة وكلمني بكرة علشان ندرسه وهكذا اجهض الاجتماع منذ اللحظة الاولي ولم يعد له أي مذاق . وقررت أنا ألا اعترض علنا علي د. نور فحزبه حليف لنا . (وجدير بالذكر أنني سألت اكثر مرة الدكتور اسامة فيجيبني بابتسامة ساخرة طلبت الفريق وسكرتيره ومكتبه عشرات المرات ولم يرد علي أحد) . . لكن الاجتماع فيما بعد كشف عما يستحق التعرف علي أسلوب الفريق، فقد طلب رئيس حزب صغير جدا الكلمة وبدأ بالنفاق المعتاد ثم ازداد نفاقا فقال في معرض كلامه عبارة "الرئيس المخلوع" وهنا أنتفض الفريق وبصوت صارخ "مخلوع ايه يا استاذ؟ الرئيس تنحي بقرار منه ولازم يفهم الجميع كده كويس وحاول المسكين أن يتراجع قائلا "اقصد . . ." فصدمه الفريق "ما تقصدش . . اسكت" فحاول أن يتأسف أو حتي يتوسل فإذا

بالفريق يأمر "لما أقول اسكت تبقي تسكت" وسكت المسكين. ولم يعجبني هذا السلوب لدرجة أنني فكرت في الانسحاب، ولكن آثرت أن أنتظر لعلي أري من الفريق أسلوبا آخر في التعامل، وان كان الفريق قد قدم لي فرصة سانحة لم أكن اتوقعها ، فقد طلب الكلمة ممثل حزب الكرامة الأستاذ امين اسكندر (وهو كما يعرف الناس واحد من خمسة تفاوض فيما بعد بهم ومن اجلهم الأستاذ حمدين صباحي ليشاركوا جماعة الإخوان في الأنتخابات في قائمة "الاسلام هو الحل") وكانت الصفقة مثيرة للدهشة والقرف في آن واحد فقد دخل الخمسة إلي البرلمان كأسري حرب في اطار ذليل يدفع المسيحي امين اسكندر لرفع شعار "الاسلام هو الحل" وصاحب الصوت المرتفع جدا والزاعم جدا أنه الممثل رقم واحد للناصرية الأستاذ كمال أبو عيطه الذي اصبح فيما بعد وزيرا. وبدأ الأستاذ امين اسكندر اشنودة ناصرية الكلمات فردد في خطاب خارج الموضوع تماما مفردات ناصرية مشهورة مثل "جماهيرالشعب المعلم" و"اقول بكل الصدق أن شعبنا العربي الذي لا ينسي قوميته" ..وفجأة وفيما يتجلي الخطيب ويرتفع صوته إلي ما فوق المعتاد في خطبه منبرية بعيدة عن أي موضوع إلا الاعلان عن ناصرية الخطيب.. قال الفريق "استني يا ابني شوية" فتوقف الخطيب مرغما.. فتوجه الفريق نحوي قائلا "يا دكتور رفعت أنا افتكرت موضوع كنت دايما عايز اسألك عنه... وانساه" هل صحيح كانوا بيعذبوك في السجن؟ وسادت الدهشة الجميع وأنا اقول "صحيح" ،

وسأل الفريق ازاي يعني؟ ولا اخفي أنني كنت اكثر قرفا من هذا الذي يخطب كأحد ابطال الناصرية بينما كان وزملائه تفوح منهم رائحة السعي نحو تحالف مع الإخوان أعدي أعداء الناصرية، فأنطلقت لأقدم نماذج متوحشة من تعذيب نازي النكهة تعرضت انا له شخصيا ومعي أكثر السجناء، وكان الوصف موجعا وصادما ومنح الحاضرين دهشة مشحونة بالقرف.. وبعد أن اكتفي الفريق والحاضرون توقفت. والتفت الفريق الماكر الي الأستاذ امين اسكندر الذين كان قد فقد كل قدرة علي القول.. أي قول، وقال له "كمل كلامك يا ابني" ولم ينطق.

وبما ان الاجتماع قد تم اجهاضه تماما سواء باقتراح د. نور فرحات أو بتصرفات الفريق عنان أو بخطاب امين اسكندر ثم بحديثي الملئ بالشجن. فقد قررت أن أنهيه بلدغة ولو في موضوع غير مطروح. وسألت " سيادة الفريق ايه أخبار قانون دور العبادة الموحد؟ (وكنت قد سمعت أن الذي اعده المستشار طارق البشري) فقال المشروع موجود.. فقلت هذا المشروع تم اعداده بدهاء ومكر شديدين. فسأل الفريق مندهشا "ازاي يعني" فأجبت. لقد تمت صياغة القانون بحيث يرفضه المسلمون جميعا ويرفضه الاقباط جميعا.. وبهذا يبقي الحال علي ما هو عليه. وابتسم الفريق قائلا "ما أنت ناصح أهو".

ويتبقي في هذه المقاربة عبارة أخيرة..

فقد ظل الفريق الذي رافق فيما بعد سيادة المشير في جلساته

العديدة التي سنتحدث عنها فورا حريصا علي الانفراد بي في فترات الاستراحة من الجلسات الطويلة وكثيرا ما كان يشكو من ثقل حمل المسئولية فمصر بلد كبير ومشاكلها معقدة وسيادة المشير عايز يمشي وكثيرين في دول العالم يؤكدون لنا لا دعم ولا مساندة ولا مساعدات ألا إذا أنتهي الحكم العسكري وعلشان كده عايزين نخلص بسرعة لتجري أنتخابات بسرعة.. فسألته "كل شوية تقولوا عايزين نمشي.. فماذا لو حكم الإخوان وزعطوكم" (هذه هي الكلمة التي استخدمتها في اطار حالة التباسط بيننا) فأجاب علي الفور وبحسم قاطع "نقطع رقبتهم هو لعب عيال"؟.

وأخيرا مقاربات مع السيد المشير

وقد لا يعرف القارئ الحصيف لماذا فاصلت متعمدا بين المشير وبين الرؤساء الثلاثة الآخرين. فقد كان رئيسا للمجلس العسكري الحاكم وكان بهذه الصفة يمتلك كل سلطات الرئيس.. بل أتي زمان كان فيه يحوز سلطات اكثر منهم. فهو يمتلك مهابة واحتراما من زملائه في السلاح، وهم جميعا يحبونه، يحترمونه، حبا ممزوجا بالرهبة واحتراما ممزوجا بتقدير يمتزج بالوجل.. أنه الحب في السياق العسكري والاحترام الممزوج بالانضباط . ولم يكن هناك برلمان، والتصارعات في زمن لقاءاتنا كانت تخشي أو تأبي أن تنتعش في اي اعلام، ونحن نشهد اليوم كتابات او فضائيات تنتقد السيسي، لكن شيئا من ذلك لم يتسرب إلي ساحات اعلام تلك الأيام.

والمشير في تعاملاته مع العسكريين الاقل رتبة وكلهم اقل رتبة هادئ متزن ومنضبط في غير ترفع. ومعنا نحن الحضور المدنيين وديع في غير تكلف ومبتسم في غير افراط.. لكنه لا يعطيك ابدا احساسا بالتسلط ولا بوجود فاصل بين حاكم وأحد الرعايا.. هو فقط قائد عسكري وضعته المقادير في هذا الموضع وهو غير معتاد ولا راغب في أن يتسلط به علي الاخرين ولا يتخذ منه جدارا بينه وبين المواطنين.. والحقيقة لست اعرف هل شرحت بهذه الكلمات مضمون وجوهر هذه العلاقة لكنها في بداية الأمر ونهايته ليست علاقة بين حاكم ومحكومين، او رئيس ورعايا. وإنما هي علاقة يمتزج فيها الاحترام للآخر مع البساطه غير المغلفة بالتكلف. باختصار كان قائدا عسكريا يتعامل باحترام وبساطه مع مدنيين لا يلزمهم خلال هذا التعامل بالانضباط العسكري الذي يتضح واضحا في تعاملات بقية العسكريين علي اختلاف مراتبهم. كان معنا بسيطا ودودا مبتسما، كلماته هادئة واحيانا قد تأتي شعرا بما يوحي بأنك أمام رجل لو خلع اليونيفورم العسكري لتماهي مثقفا واديبا لا يفرض علي الآخرين اية تعاملات غير متكافئة فقط تباسط يغلفه احترام متبادل.

ومنذ البداية تلقنت احساسا بأن المشير قد غمس نفسه في مسألة تشكيل اللجنة التي ستختار اللجنة التأسيسية لوضع الدستور بعد أن سئم من فشل المحاولات الاخري. واحسست ان الأمر كله قد أتي عقب مشاورات لم نشعر بها. فإذا كان المدعوون للاجتماع هم

رؤساء الأحزاب التي كانت ممثلة في البرلمان فإن اضافات من غيرهم قد ظهرت.. فمصطفي بكري حضر وكان يلعب دورا مهما، كذلك محمد عبد المنعم الصاوي (وكان علي الدوام يتقن كيفية شرح مواقف الإخوان والعمل علي اقناع الآخرين بها محاولا ألا يلحظ أحد أن تداخلاته تأتي دوما لصالح الإخوان وذات مرة كاد أن يكشف مكنون موقفه، فأرسل لي أحد القادة العسكريين الحاضرين ورقة صغيرة كتب "ده اخواني اصيل بس بيفهم ولهذا هو كائن نادر) وثمة حاضرين آخرين يمثلون احزابا لا عضوية لها في البرلمان السابق.

وكان ترتيب طاولة الأنتخابات متقنا لكنه كان واضحا تماما أنه منحاز اخوانيا. فالترتيب البروتوكولي للمائدة البيضاوية يأتي كالتالي فالضلع الأطول المجاور للباب يجلس المشير في منتصفه وأنا في منتصف الضلع المقابل أمام المشير بصفتي رئيس اقدم حزب والحضور العسكري ممثل في مجموعة لواءات المجلس العسكري أو اغلبهم ويجلسون علي جانبي المشير. أما أنا فعلي يساري جلس د. محمد مرسي وربما آخر أو اثنين من الإخوان ثم د. مخيون (حزب النور) وعلي يميني كان د. احمد سعيد ود. ابو الغار. ثم سلفيين عتاة، وهكذا تناثر المدينون علي جانبي ضفتنا.. اما الانحياز اخوانيا فقد تمثل في اكثر من عضو اخواني بينما لجميع الأحزاب الاخري مندوب واحد هو رئيس الحزب. وأيضا حقهم في أن يتبادلوا الحضور فقد كان للاخوان اربعة ممثلين محمد مرسي -عصام

العريان- ابراهيم حسين ورابع يتغير بينما كل الآخرين لا يجوز حضور إلا رئيس الحزب ولا يمكن تبديله.

وفكرت في أن احتج ولو خارج الاجتماع علي هذا الانحياز الواضح للاخوان لكنني كظمت غيظي حتي لاتنهمر تعقيبات منها الإخوان هم الاكبر وهم الاكثر عددا في المجتمع وهم.. وهم..

***

وفيما أعيد مراجعة ملاحظاتي التي دونتها خلال الاجتماعات التي ترأسها السيد المشير اكتشفت اولا أنني سبق أن دونت بعضها في كتاب اصدرته بعنوان ما تبقي من ذكريات، وثانيا أنها في اغلبها كانت مملوءة بالملل "حوالي واحد وثلاثين اجتماعا كل منها يمتد لثماني ساعات تقريبا وتتخللها وقفات قصيرة (شاي- نسكافيه- وموائد من بسكويت وكيك) وكانت مراوغات الإخوان فيها ممتده ومدروسه وتستهدف تبديد الوقت ربما للأنتهاء من ترتيبات يستعدون بها، ومن ثم فإن إعادة تكرارها يكسب القارئ مللا ولا يفيده شيئا.. كان ممثلوا الإخوان الرسميون يتصرفون بترفع وجفوة منفرة.. أما الممثل غير الرسمي الأستاذ محمد عبد المنعم الصاوي فكان يعيد صياغة كل شيء ولكن بأسلوب هادئ.. شيك ومتقن.. ولهذا سأكتفي بإلقاء بقع من الضوء علي بعض وقفات.

* في بداية إحدي الجلسات. وفيما سيادة المشير يدخل وقبل أن يجلس ليبدأ الجلسة صاح د. مخيون (حزب النور) يا سيادة المشير أنا عايز اتكلم. التفت المشير ناحية الصوت دون أن تبدو علي

ملامحه أنه سمع شيئا وبعد جلس التفت إليه وقال إتفضل "وانفجر مخيون قائلا د. رفعت السعيد في حوار تليفزيوني أنتقد حزب النور وهاجمه وكانت تهمته لنا اننا ذوي مرجعية اسلامية بينما هو يرأس حزبا مرجعيته شيوعية فهل هذا لائق؟ وبابتسامة هادئة توجه سيادة المشير نحوي قائلا "اتفضل.." فقلت أولا عاوز اصحح كلام د. مخيون : انا رئيس حزب التجمع وحزب التجمع مش حزب شيوعي ولا ماركسي، لكن لأنني عندي هواية اغاظة دكتور مخيون وامثاله فأنا اقول له أنا مرجعيتي ماركسية وانا لم اقل حزب النور مرجعيته اسلامية انا قلت أنها مرجعية متأسلمة والتأسلم في إعتقادي هو رؤية خاطئة ومشوهة للاسلام، وعلي أية حال لو أنا قلت أن مرجعيتي ماركسية يستطيع د. مخيون أن يرد علي قائلا في ستين داهية أنت وماركس بتاعك. ولكن اذا قال هو ان مرجعيته اسلامية فهل استطيع آن أرد عليه بأي هجوم؟ أنهم يا سيادة المشير يتمسحون بالاسلام لتكتسب افكارهم وأوهامهم ومخططاتهم مسحة مقدسة فيفرضوها علينا".

وإذ ترتاح الابتسامة علي وجه سيادة المشير الذي توجه إلي د. مخيون سائلا اياه تحب ترد؟ ولم يرد مخيون علي السؤال واكتفي بالصمت.

* وفي كثير من الأحيان كان مرسي يتبدي مرتبكا ولا يستطيع أن يواصل المماطلات ولا أيضاح سببها.. وبعد ضغوط من المشير طلب د. مرسي مهلة يومين للتشاور مع "الاخوة". وانتهت المهلة ليأتي مرسي ويعطيه المشير الكلمة وظل يتكلم بالضبط ٤٥ دقيقة

يقول ويعيد ويزيد ويكرر دون أن يقول جملة واحدة مفيدة وتشير إلي موقف الجماعة. وبملل شديد توجه المشير نحوي قائلا اتفضل فقلت ثمة مجلة انجليزية شهيرة اخترعت تعبيرا سياسيا جديدا هو التريدميل السياسي. ووصفت به اجتماعات وزراء خارجية الاتحاد الاوربي والتي تتكرر وتستطيل ولا تصل لشيء (والتريدميل هو السير الذي يمشي عليه مستخدمه دون أن يغادر مكأنه) ود. مرسي تكلم ٤٥دقيقة دون أن يقول شيئا" فإبتسم سيادة المشير قائلا يعني زي ما بنقول في العسكرية "خطوة تنظيم" وتظاهر مرسي بالغضب وربما وجدها فرصة ليغضب ويخرج فيكسب مزيدا من الوقت وفيما يقف د. مرسي شخط فيه المشير "اقعد" فقعد.

* والحقيقة أن الجلسات المتراكمة والمستطيلة كانت في أحيان كثيرة تستهلك في احاديث ممثلي الإخوان أو مناصريهم مخيون أو الصاوي ممثلهم غير الرسمي. ثم ردود عليهم مني أو من د. احمد سعيد الذي كثيرا ما تحدث منددا بالحسابات والتصرفات الإخوانية وأيضا الأستاذ احمد الفضالي ومصطفي بكري. أما بقية الجالسين فكانوا مرتبكين صامتين حائرين أو حتي خائفين فهم يقرأون المستقبل بوجل ولا يريدون اغضاب لا الإخوان ولا المشير.. وذات مرة سألني احد اللواءات الحاضرين ونحن نشرب النسكافيه "الناس دول ساكتين ليه" فقلت ألم تسمع بيت الشعر القائل:

مت بداء الصمت خير من كلام

انما العاقل من ألجم فاه بلجام

* والحقيقة انني لاحظت إن سيادة المشير كان يتعمد أن يعطيني الكلمة لأرد علي الإخوان فلولا هذه المجادلات ما كان للاجتماع معني. واتذكر ان الأمر كأن كذلك في مجلس الشوري فسواء د. مصطفي كمال حلمي او الأستاذ صفوت الشريف، فالكثيرون أما يخافون من مواجهة الإخوان أو يتحرجون أو لا يعرفون من امر دينهم وتاريخ بلادهم ما يمكنهم من ذلك.

* وذات يوم تبدي فيه السيد المشير وقد فاض به الكيل. أو لعل الترتيبات كان يجب أن تنجز، المهم دخل المشير قاعة الاجتماعات متجهما أو لعله أراد أن يبدو كذلك، وقال هذا آخر اجتماع، ولن يغادر أحد هذه القاعة ألا بعد أن نصل الي اتفاق. والحقيقة انني كنت أيضا قد فاض بي الكيل وانما علي وجه آخر فقلت "سيادة المشير هل هذا امر ضبط واحضار؟" فقال متجهما علي غير عادته "ليكن كذلك" وهنا وجدت نفسي مندفعا دون أن افكر في الأمر بأي قدر من التروي وقلت "اذن يا سيادة المشير انا عندي كلمة لو سمحت". قال بذات التجهم اتفضل. فقلت "طبعا يا سيادة المشير أنت والسادة اللواءات الجالسين معك درستم تاريخ المعارك العسكرية والحروب الهامة في التاريخ فهل يستطيع أحد منكم أن يتذكر اسم الجنرالات الذين هزموا مع نابليون في معركة ووترلو؟ "وأضيف دون أن أنتظر اجابة طبعا لأ. وسألت لماذا؟ لأن التاريخ لا يذكر ولا يتذكر إلا اسماء القادة، ومن ثم يحملهم وحدهم النتائج إن خيرا فخير وأن شرا فشر، وهكذا فإن التاريخ عندما يفتح صفحة

أيامنا هذه ويسجل فيها من هو المسئول عما يجري الآن فإنه لن يذكر إلا اسمك أنت يا سيادة المشير وكررت بلا محاذرة أن خيرا فخير وأن شر فشر. وأنهيت كلمتي فخيم صمت متوتر علي القاعة وخاصة اعضاء المجلس العسكري الحاضرين.. صمت الجميع، وبعد فترة تحدث المشير وهو يوجه كلماته إلي سقف القاعة وقال: حتي عندما كنا ملازمين أوائل كنا لا ننسي الاساءة التي توجه إلينا. وهكذا بحصافة القائد المدرب وجه لي الأنتقاد التحذيري بهدوء ودون اساءة، أما أنا فقد كان تراكم ما تابعت من حوادث وأحداث ومجاملات ومع احساس طاغ بأن الإخوان يستعدون للانقضاض علي تركيبة اللجنة التأسيسية لوضع الدستور، بينما الهمسات الجانبية كانت تجري علنا وفي فترات الاستراحة كان ايمن نور يدور من شخص لآخر وبعد أن قضي طوال الجلسات السابقة صامتا بدأ يتحرك، وأنتحي مصطفي بكري يكتب شيئا، وقادة الإخوان الكبار اختفوا وحضر مكأنهم اعضاء من الصف الثاني "ابراهيم حسين- عصام العريان- اسامة يس" ولهذا عدت فطلبت الكلمة مرة ثانية وقال المشير بغضب "اتفضل" فقلت "يا سيادة المشير أنت تعرف جيدا أنني احترمك واحترم فيك استقامتك. ولكن لعلك أنت والسادة القادة الجالسين هنا تعرفون وبدقة إلي اين تسير الأمور، لكننا أو علي الاقل أنا لا أعرف، وأود أن اسأل.. لو أن لواءً آخر من غير الموجودين هنا، يشاهد وهو في طريقة إلي بيته كل يوم والسيارة تسرع به ربما لأن السائق لا يريده أن يستاء مما هو مكتوب

علي الحوائط من شعارات مثل يسقط حكم العسكر، ومثل شتائم بذيئة ضدك وأنت تعرف يا سيادة المشير (وتلفت فلم أجد إلي جواري د. مرسي وبدلا منه وجدت ابراهيم حسين فزغدته قائلا) وأنتم تعرفون من يكتب؟ ومن يدفع لمن يكتب؟ ومن يستعد من الاستفادة مما يكتب؟ ثم يصل اللواء إلي بيته ليجد ابنته لتسأله مين اللي بيكتب ضدكم؟ وساكتين عليهم ليه؟ خايفين منهم ولا إيه؟ فمباذا يجيبها؟ وهنا قاطعني اسامة يسن دون أن يطلب الكلمة إذ يبدو أن كلماتي قد افقدت الإخوان هدوئهم البارد وصاح "يا سيادة المشير الدكتور رفعت بيسخنك ضدنا" ولحقه د. مخيون "فعلا يا سيادة المشير هو بيسخنك ضدنا"، ورد المشير غاضبا "أنا محدش يقدر يسخني، ولو كنت اتسخن لكنتم شفتم وش تاني".

وسري تيار الكهرباء في الجلسة ويبدو أن كلماتي سارعت بما هو يجري اعداده وطالب الإخوان بـ٥١٪ من أعضاء اللجنة التأسيسية، فقلت في هذا الحالة يكون التصويت بثلثي الحاضرين، وهنا صاح عصام العريان دون اذن "البعض هناك يحاول تخويف الناس منا، ويتصور أن كل من يقف معنا اخوان.." وصاح ابراهيم حسين "البعض يحاول أن يفرض ارادة الاقلية علي المجموع". فقاطعته "عندما يكون الوطن مهددا فلا يمكن حتي للأقلية أن تخضع لمن سيدمرون مستقبل الوطن"، وهاج الاجتماع وقلت "افعلوا ما شئتم اما انا فأرفض ومن الآن اعلن انسحابي من اللجنة التأسيسية وسأغسل ايادي حزب التجمع من هذا الموضوع كله".

وصاح مصطفي بكري.. لابد من التفاهم فإنسحاب د. رفعت سيقلب "موازين كثيرة" وهاصت الجلسة وأنهارت الضوابط الصارمة التي فرضها المشير منذ الجلسة الاولي ، وبدأ الجميع يتكلمون في نفس واحد.. فدق السيد المشير بيد حازمة علي المنضدة ترفع الجلسة لنصف ساعة، وخرجت وأنتحيت جانبا في حالة من القرف.

* واقترب مني اللواء محمد العصار وكان الاقرب إلي قلبي.. وفي اعتقادي أنه كان واعيا بما يجري فوق وتحت سطح الأحداث فقال بهدوء لا تتوتر ولا تخاف، فالشعب المصري البسيط رغم اميته وبساطته يعيش في حالة من التمسك اللاشعوري بالدولة المدنية ولن يسمح للاخوان أن يفرضوا ما تسميه أنت بالتأسلم.. فقلت في حالة من الغليان إذن استعد يا سيادة اللواء لأن تدخل إلي قفص الاتهام أمام قضاه من الإخوان.. بهت الرجل لهذا التجاوز غير المبرر وتركني صائحا أنا ما بخافش وسمع الصوت المرتفع الفريق سامي عنان فسألني فيه إيه؟ فأعدت عليه ما قلته للواء العصار فصاح غاضبا.. مش معقول تقول كده لسيادة اللواء".

* (والآن وبعد كل ما كان اعترف للواء محمد العصار برؤية عميقة لطبيعة الشعب المصري ومكونه العقلي.. واعتذر له)..

* انتهي النصف ساعة وكان ايمن نور الصامت دوما والمتحرك فقط في آخر لحظة قد اعد اقتراحا معقدا لتشكيل اللجنة التأسيسية. وعصام العريان يرتفع بصوته لكي اسمعه فيقول..

"إحنا تسعين مليون ومش حينفع أن كل واحد يمثل في اللجنة التأسيسية ..وكان مصطفي بكري قد اعد صيغة بيان. وكان ما تم طبخه خلال الاستراحة تقسيمة غريبة ٥٠٪ من اللجنة التأسيسية للتيار "الإسلامي" و ٥٠٪ للتيار الليبرالي. وأتي أحد الصامتين الدائمين وقد استيقظ فجأة وهمس في أذني العريان اتفق مع سيد البدوي ومضي سريعا قبل أن يلحظه أحد.

وسمعت الفريق عنان قائلا "لماذا لا نثق في بعضنا البعض، ولماذا لا نعلو فوق المصالح.. وهنا قلت "أنا اطلب الكلمة للمرة الثانية فقال سيادة المشير تقصد للمرة العاشرة، ولم التفت لهذه الوخزة وقلت المسألة ليست مصالح شخصية ولا مقاعد برلمانية نحن مقبلون علي وضع دستور.. وفي هذا الدستور نحن نريد اقرار مبدأ قيام دولة مدنية حديثة وهم من الآن يحاولون أن يفرضوا علينا "ولاية المتغلب" وهنا امتشق عصام العريان صهوة المنتصر محاولا أن يلفت نظري ونظر الجميع إلي أنه أنتصر، فقال وكأنه يعلمنا ويقوم بتقسيم النسب "إذا كنا سنختار مائة فلا يمكن للمائة أن تمثل كل الناس، والدستور بعد صياغته سيعرض للاستفتاء، وللشعب كلمته الأخيرة، وانا اعتقد أن ما يظهر الآن من مظاهر عدم ثقة سوف يذوب بمجرد أن تبدأ اللجنة التأسيسية عملها"، ثم وجه حديثه نحوي قائلا "أننا الآن أمام طريقين طريق يري ضرورة الانجاز وطريق يصمم اصحابه علي التفتيش في النوايا ويستحيل أن نصمم علي تحقيق الاجماع، وانما نريد توافقا بين الاغلبية، فنحن مثلانوافق علي

ما طرحه د. سيد البدوي مادام الهدف منه تحقيق الوصول للهدف الذي ننشده (وهنا تأكدت لي همسة الصديق الصامت دائما). وحول اقتراح د. رفعت أن يكون التصويت بنسبة ٧٥٪ فنحن نري أن اللجنة عندما تشكل تقوم بتحديد اسلوب عملها.. أما من يحاول التعطيل فإنه هو من يتحمل مسئولية التعطيل.

والآن استأذن القارئ أن انقل حرفيا نصوصا من مداخلات سجلتها في نهايات هذه الجلسة التي اصبحت تاريخية.

* **مصطفي بكري** "أن التصويت بأغلبية الثلثين يمثل ضمانة، ومن البداية احنا قلنا دستور ثم أنتخابات رئاسية لكن خيرت الشاطر صمم الرئاسة أولا ثم الدستور. وانا اشعر بشرخ كبير إذا انسحب رفعت السعيد، واذا غاب التوافق البلد حتقع.. وأنا اطالب السيد المشير كقائد للمجلس العسكري أن يتدخل الآن لوضع معايير ملزمة للجميع.

* **أحمد الفضالي**: البعض يعود بنا إلي نقطة الصفر فهل من المعقول أن نسلم مصر لاغلبية مؤقتة؟ نحن لا نقبل الا التصويت بأغلبية الثلثين.

* **إبراهيم حسين**: نحن حريصون علي انجاز الدستور امبارح مش النهاردة، والبعض يحاول اغراقنا في محاولات استكشاف في النوايا. ورفعت السعيد يتهمنا بأننا اغلبية وكأن الاغلبية معره. وهو يحاول أن يوهم الناس أن كل من يقف مع الإخوان هو اخوان. ويا ناس ليعرف الجميع أن اللجنة التأسيسية عندما تنعقد ستكون

صاحبة لائحتها وأسلوب التصويت فيها.

* **محمد السادات**: التصويت بأغلبية الثلثين يريح الجميع وأرجو ألا يتركنا المجلس العسكري في هذه الحيرة وأن يتدخل ليحسم الأمر

سيادة المشير: انا عارف انا باعمل ايه وسأعمل ايه. واقول لكم جميعا خاصة الاغلبية توصلوا إلي حلول ولا ترسلوا إلينا الكره.. احنا مش خايفين، احنا مات مننا كثير في الحرب، ومستعدين نموت دلوقت، وانا شخصيا لن اترك مصر إلا شهيد. نحن يا دكتور رفعت نريد أن نترك تاريخا ناصعا ولهذا ندعوكم للتوافق. توافقوا يا سادة. وانا بصراحة ممكن اصدر الآن قرارا لكن هذا سيكون قرار صعب جدا. واحنا عارفين احنا بنعمل ايه (ثم وجه كلامه نحو الإخوان) وقال "اللي متصور أن له نفوذ في الجيش واهم، واهم جدا، إحنا موحدين ولا يؤخذ أي قرار إلا بموافقة العشرين واحد بالاجماع.

* **مصطفي بكري**: لنضع معيارين ٥٠+١ للمواد المتفق عليها والثلثين للمواد المختلف عليها.

* **رفعت السعيد**: المتفق عليه ٥٠+١ وإذا "الإخوان" مش عايزين الثلثين. تطرح المواد المختلف عليها للاستفتاء مادة مادة.

* **عصام العريان** (صارخا): المتفق عليه ٥٠+١ والمختلف عليه ٦٠٪+١ وإلي هنا وكان الجميع قد ارهقوا وفي غمره هذا الارهاق والاحساس بأن الحوارات مجهضه وبلا جدوي. طرح للتصويت اقتراح تشكل اللجنة من ٥٠٪ (تيار اسلامي) و٥٠٪ تيار ليبرالي

مدني- لكن همسة اتفاق الإخوان مع سيد البدوي لاحت امام عيناي فتحدثت.

* **رفعت السعيد**: سيادة المشير حضرتك مصدق ان الإخوان ستنفذ هذا الاتفاق (ولم يكن ملائما ان اشير إلي مخاوفي من اتفاقهم مع سيد البدوي دون ان امتلك دليلا).

* **سيادة المشير**: طبعا مصدق.. هو لعب عيال.

* **عصام العريان**: انا خارج دلوقت لاعلن في المؤتمر الصحفي أننا موافقين.

* **رفعت السعيد**: وأنا خارج دلوقت ولن احضر المؤتمر الصحفي حتي لا يتصور أحد انني موافق وحتي لا اعترض فيقول البعض إنني أفسد الاتفاق رغم انني واثق تماما أنه سيتم التلاعب وعدم تنفيذ الاتفاق.

وحملت أوراقي وخرجت.

ويبقي قبل أن اختتم أنه في اليوم التالي عقد اجتماع حضره الإخوان -حزب الوفد. واتفقوا علي اعتبار حزب الوسط الحليف المقرب جدا من الإخوان حزبا ليبراليا. وبالتالي تحولت النسبة إلي ٤٩٪ (ليبرالي) و٥١٪ (متأسلمين) هذا بالاضافة إلي انضمام حزب الوفد لهم، وسينضم إليهم حمدين صباحي ورجاله، وبالتالي اختلت النسبة تماما.

ثم وجهت الدعوة إلي أعضاء المجلسين للتصويت علي انتخاب اللجنة التأسيسية وفي آخر لحظة وزعت سرا قائمة تضم المائة اسم

المقترحين لتولي عضوية اللجنة التأسيسية. وقد وزعت هذه القائمة علي اسماء محددة، أما الآخرين فقدت تركوا لكي يختاروا من بين حوالي الألف اسم مائة اسم لا تزيد ولا تنقص ويبطل الصوت أن زادت أو نقصت، وطبعا صعب جدا التصويت بهذه الطريقة بينما الآخرين المحظوظين معهم بطاقة معدة سلفا توضع في الصندوق. وللحقيقة فقد اتصل بي قبل الاجتماع بيوم احد قادة الوفد، وقال نحن بصراحة نعد قائمة موحدة فهل تريد أن نضم إليها اسماء من التجمع. وقلت : لا.

ومع بداية الاجتماع وقبل التصويت وقف عاطف مغاوري عضو مجلس الشعب معلنا باسم الهيئة البرلمانية للتجمع الانسحاب من عملية التصويت ومن اللجنة التأسيسية.

وهكذا غسل حزب التجمع يديه تماما من قائمة المائة تلك القائمة التي اسميت في كواليس السياسة بعد ذلك بقائمة العار وضمت "ممثلي القوي المتأسلمة- الوفد- حمدين الصباحي ورجاله- الديمقراطي الاجتماعي- السادات". كل بنسب مختلفة لكن الإخوان لهم الاغلبية المطلقة.

وهكذا بدأت رحلة وضع الدستور الإخواني.. ومعها رحلة كشف المتواطئين معهم وحلفائهم.

وأخيرا .. وقبل أن استشعر اعتقادا بأنني قد اكملت مقارباتي أريد.. أن أروي حكايات متعجلة اعتقد أنها تكمل الصورة.

***

في فترة الإعداد للانتخابات الرئاسية حضر رئيس المخابرات القطرية إلي مصر.. وفي أحد فترات الراحة اثناء الجلسات مع المشير سألت أحد كبار الضباط لعل قطر تقدم دعما يريحكم بعض الشيء، فإنهال منه سيل من السباب وقال "تحدث معنا بكلام معسول وما أن غادرنا وبينما كان لم يزل عائدا في سيارته أنهال بالشتائم علينا وعلي مصر متوعدا بأن يأتي بمرسي لرئاسة جمهوريتها رغم أنف الجميع، وفي ذات الليلة اتجه رئيس المخابرات القطرية إلي قصر شديد الفخامة يتألق بفخامته الملفته للنظر علي يمين المتجه عبر الطريق للمطار، القصر مملوك لملياردير ليبي متزوج من ابنه مسئول مصري كان كبيرا جدا، قبل أن يعزل فجأة من منصبه ويظل مركونا بلا عمل حتي ينتقل إلي رحمة الله. والملياردير معروف لدي من يعرفون امثاله وأمثال صهره المرحوم بأنه علي علاقة قوية جدا بقطر وهي علاقات تتمدد من الاستثمارات إلي التداخل مع الاجهأة الاستخباراتية فيما قد تحتاجه منه. من تحركات أو تمويلات او استخدام علاقاته في ليبيا.

الأمر الذي تبدي بعد ذلك فيما نشر بعد انهيار نظام القذافي في عديد من الصور واللقطات التليفزيونية لرئيس المخابرات القطرية مع قادة بعض المليشيات الليبية بعض اغتيال القذافي، وقد تعمدها ليقول للجميع نحن لنا تواجد هنا.

المهم هذا الملياردير صاحب القصر المهيب استقبل في قصره رئيس المخابرات القطرية وكان هناك مرسي المرشح للرئاسة وعصام

العريان.. ودار الحوار الذي كان يسجل بمعرفة اجهزة ارادت تعقب نشاط المخابراتي القطري المفتقد لابسط قواعد الحرص، وفي التسجيل يقول رئيس المخابرات القطرية موجها الحديث لمرسي والعريان " أنا اؤكد لكما أن كل ما تريدونه من تمويل لمعركتكم الأنتخابية جاهز وخذوه من هذا الرجل وهو مفوض أن يعطيكم كل ما تريدون وأكثر".

وكان عصام العريان قد شن هجوما شديدا علي اليسار في حوار تليفزيوني وقال "لا عزاء ليسار رفعت السعيد".. فأرسلت له رسالة شفوية مع احد رجاله قلت فيها "تأدب فقد سمعت صوتك في تسجيل لرئيس المخابرات القطرية في قصر المليارديير زوج ابنة فلان وأنت تتلقي وعدا قطريا لتمويل معركتكم بكل ما تريدون من مال واكثر" وتراجع العريان وفي تصريح بعدها بيوم قال العريان "لا مشاكل مع اليسار ولكن رفعت مزودها شوية في الهجوم علينا، ثم بعدها بيوم صرح "لا تحفظات لنا علي أي يساري ورفعت السعيد رغم خصومته معنا مناضل قديم ومحترم. وبهذا رفعوا راية الاستسلام وبعدها صرحت في حوار مع الأستاذ فوزي عويس (الوطن الكويتية) لقد اعلن رومني امام الكونجرس أن اوباما اعطي من اموال دافعي الضرائب الأمريكيين ٥٠ مليون دولار دعما لمرسي في أنتخاباته. والغريب ان جماعة الإخوان لم تنف واوباما لم ينفي ورومني لم يكررها.

لكن المعركة مع الإخوان تواصلت.

سألتني مقدمة احد البرامج التليفزيون بعد أن تواصل حوارنا عن مرسي وهو في قصر الاتحادية "لاحظت انك ابدا لم تقل الرئيس مرسي وتكتفي بالدكتور مرسي.. فقلت حاسما لأنه ليس رئيسا، الرئيس الحقيقي يقبع في المركز العام للجماعة، وضغطت بشدة ربما لتشعل الحوار فتحصل علي اعلانات اكثر.. من هو؟ فقلت خيرت الشاطر وبالامارة كمان الذي يحمل تعليمات مكتب الارشاد لمرسي شاب فرض عليه من خيرت ليكون سكرتيرا خاصا له واسمه خالد..

وهنا قرر خيرت الشاطر محاولة اخافتي ولعدة مساءات تحتشد امام بيتي بالمقطم وهو علي بعد مائة متر تقريبا من مقر الجماعة سيدات منقبات ومعهن اطفال صغار، السيدات يحملن طارات يدقونها بصوت صارخ ابعد ابعديا سعيد، ابعد امشي روح بعيد، يسقط اعداء الاسلام.. والاطفال الذين يرتدون جميعا ملابس بيضاء يهتفون أيضا. ارتبك الحرس المكلف بحراستي وامرتهم لا تعتدوا عليهم فقط اغلقوا البوابة وإبقوا بالداخل.. وكان لابد من رد وألا توحشوا، ولأن مكتب الارشاد ينعقد كل خميس في المركز العام بعد المغرب أتي الرد هناك، فبعد صلاة المغرب تحتشد عشرات السيارات شبان وشابات من سكان الحي يفتحون معا كاستات السيارات وفي صوت واحد ترتفع موسيقي سالسا، وبعض الكاسيتات امامها هاند مايك فيرتفع صوت الموسيقي ليهز مساحة كبيرة ويقلق المجتمعين في مكتب الارشاد والشبان والشابات يرقصون السالسا بحماس ومرح.

.. ولأنني لا يمكن أن احشد من يعتدي علي منقبات واطفال، ولأنهم لا يجرؤون علي المساس بأبناء وبنات الحي حتي لا يقف الجميع ضدهم.. سكتوا وسكت اولادنا.. ونبقي خالصين.. لكن المعارك تجددت وبشراسة عندما اعلن متظاهرون معادون للاخوان صعودهم لمحاصرة مكتب الارشاد احتجاجا علي محاصرة المحكمة الدستورية. وأدار خيرت اشاطر معركة ضدهم خالية من أي ذكاء ففي مدخل الطريق الصاعد ما بعد مقر للقوات المسلحة كمن الإخوان ومعهم اكوام من الحجارة لقذفها علي الصاعدين ناسين أن ثمة مرتفعا صخريا فوقهم يمكن الصعود إليه من مطلع آخر وهناك احتشد شباب المقطم ومعهم احجارهم وفيما يقترب المتظاهرون ويبدأ انصار الإرهابية بالقاء الاحجار أنهالت عليهم من اعلي تلال من الاحجار فتفرق رجال الشاطر.. ودارت معارك شوارع هزموا فيها شر هزيمة واضطروا أن يكشفوا اوراقا اخفوها امدا طويلا.. مثل سيطرتهم علي مسجد بلال ابن رباح حيث جمعوا فيه جرحاهم ثم نقلوا الجرحي إلي عيادات تتسمي باسم جمعيات تابعة لهم.. وبعدها طردوا من المسجد ووضعت العيادات تحت سيطرة جهاز ادارة اموال المحظورة.

وما تبقي بعد ذلك هو محاولة لأن أجد خاتمة.

ليست خاتمة .. وإنما

صحيح ليست هذه خاتمة فما من خاتمة تأتي لمقاربات شخصية تتفحص مواقف وردود أفعال وانفعالات الشخصيات الأربع الأكثر أهمية في الستين عاما الماضية . . وهي لم تكن رؤية متكاملة لهذه الشخصيات الأربع ولا محاولة لكتابة تاريخها ولا إنسياقا من الحديث عنها لأبعد من مقارباتي معها . . هو رؤية شخصية إذن ومن تأطيرها في اطار يبتعد بها عما هو محدود ومحدد قد يعطي الخاتمة مذاقا يتمايز أو حتي يختلف عن الهدف من مجمل الكتابة .

لكنني وبصراحة شديدة أود أن أمسك بتلابيب ما كتبت وما افصحت عنه وما أفسحت لنفسي من تسجيل لمعاملات ومقاربات كي اعتصر من بين الاسطر درسا بالغ الاهمية . ارجوك يا عزيزي القارئ أن تتقبله مني ليس من قبيل الترفع من جانبي او ادعاء المعرفة أو المقدرة علي النصح . . وانما كي نتشارك معا لنفهم ونتفهم .

فكل زعيم من الاربعة سواء اتفقت انا أو اتفقت أنت معه أو لم نتفق لو تأملت فيما أتي من اسطر عنه ستكتشف أن صفحاته ليست كلها بيضاء كما أن كلها ليست سوداء، ومن ثم فإن التشنج الذي لم يزل تتركب مواقف البعض كالناصريين مثلا أو الساداتيين أو دعاة آسفين يا ريس لمبارك.. لا يعبر عن فهم موضوعي وعقلاني. فلكل أن يحب من يشاء ولكن عليه ألا ينظر للزعيم الذي يحب بعين واحدة لا تري إلا محاسنه وتضعها تحت مكبر يضخمها ويتناسي ما كان من أخطاء.. وعلي الآخرين ذات الشيء. فالانحياز المطلق لشخص ما يتحول إلي الانحياز المطلق ضد الثلاثة الآخرين "فعين السخط تخفي المحاسنا".

أننا في اوضاعنا العربية وإذ تتلبسنا اساليبا ثوارتناها عبر تراثنا العربي والاسلامي كثيرا ما ننظر للآخر بسلبية لمجرد أنه الآخر ودون أن نعطيه حق الاختلاف بينما نجأر بالشكوي إذ ما حرمنا الاخرون حقنا في الاختلاف.

فالمبدأ الأول في بناء مجتمع متحضر وديمقراطي وليبرالي هو أن تري فيمن تحب أو تتفق معه محاسنه وعيوبه معا.. ولا تكتفي بمحاسنه واما المساوئ فهي زعمهم مخالفة للحقيقة واحيانا لا يتذكرها إلا الخونة وأعداء الوطن.

والمبدأ الثاني لبناء مجتمع متحضر هو أن تحترم الآخر وأن تفتش عن محاسنه قبل أن تسرد خطاياه.

.. وهكذا يا عزيزي القارئ فلقد تتبدي هذه المقاربات موقف

شخصي ولقد تعجبك الكتابة بمجملها أو لا تعجبك أو تعتبرها نص نص. لكن نجاحي الحقيقي سيكون إذا تعاملت بعقل وبميزان موضوعي تماما وعادل تماما مع هؤلاء الاربعة فسوف يكون ذلك تدريبا للنفس علي النظر الموضوعي حبا ورفضا، قبولا وكرها، انحيازا واعراضا وأن يمسك عقلك بميزان عادل يزن المحاسن والخطايا ويقارن ويحلل ويتعامل ويتعلم علي هذا الأساس.

وشكرا عزيزي القارئ علي كل حال.

المحتوى

لمـــاذا 5

أ- في خضم الموج الناصري 11

مع السادات..... 81

مع مبارك..... 121

وما بين مقاربات مبارك.. ومقاربات المشير..

صفحات مع عمر سليمان..... 149

وقبل المقاربة مع المشير .. كانت مقاربات مع

رجـــاله..... 161

ومقاربة مع الفريق..... 167

وأخيرا مقاربات مع السيد

المـشـيـر..... 173

ليست خاتمة .. وإنما 193